قررت وزارة المعارف تدريس المدارس الثانوية هذا الكتاب

علاج النفس

لمنشئه

المرحوم السيد محمد المويلحي بك

الطبعة الأولى

الثمن

١٠ ق

التزمت نشره وطبعه على نفقتها مطبعة فؤاد

طبع بمطبعة فؤاد بميدان باب الخلق عمارة الاوقاف

قررت وزارة المعارف تدريس المدارس الثانوية هذا الكتاب

علاج النفس

لمنشئه

المرحوم السيد محمد المويلحي بك

الطبعة الأولى

التزمت نشره مطبعة فؤاد

طبع بمطبعة فؤاد بميدان باب الخلق عمارة الاوقاف

مقدمة

بقلم الاستاذ الجليل اسماعيل شيرين بك

مدير المطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

واليه توسلى . وعليه توكلى

أما بعد فهذا كتاب فى فنون الحكمة ، وضروب رياضة النفس ، وضعه الحكيم المرحوم السيد محمد المويلحى بك ، يقصد به الى تهذيب النفس ورياضتها وحثها على استكمال حاجتها من الأخلاق الفاضلة والتربية القويمة ، وقد وفقه الله فى فلسفته كما وفقه فى أدبه فجاء الكتاب بفنونه المتعددة ، وموضوعاته المتشعبة ، مما يذاق ويساغ ومما تشد الأيدى عليه ، ويحج اليه ، وكان من خير التحف والألطاف ، ومن أنفس الجواهر والأعلاق . ولا عجب فالسيد المويلحى رحمة الله

عليه وهو حجة فى أدب القلم وأدب النفس منحدر من الصلبين الطاهرين فهو من نسل الصادق والصديق ، وأنعم بآبائه وبنسبه العريق ، وأكرم بهذا السبب الوثيق ، وهنيئاً له الشرفان شرف الدنيا وشرف الآخرة .

والمويلحى هو من تعلم فى سمو النفس ، وقوة الارادة ، والكبر عما يشين ، الى تأدب بما أنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام من كريم القول وبليغ الكلام .

فلو أنه كان فى القرون الأولى ، وشاء أن يضرب الجزية على الصاحب بن عباد ، والخوارزمى ، والبديع ، لما تلكأوا فى الدفع ، ولا دفعوا رآسته بالمنع ، ولبايعوه اماما وتوجوه أميراً وساروا فى ركابه . واجتمعوا فى رحابه .

ولقد كانت البلاغة فى العصر الحديث فى حاجة الى مثل محمد المويلحى الذى جدد شبابها ، وألبسها جلبابها ، وقد كانت شمطاء عارية ، عيوبها بادية ، فما زال بها يؤاسيها ويسليها ويتوجع من أجلها حتى خلقها الله خلقا جديداً على يده ويد والده وأستاذه المرحوم السيد ابرهيم المويلحى سيد كتاب العربية فى عهدنا والعهود الماضية الى الجاحظ .

وكان صاحب (علاج النفس) أمة وحده لا يغتاب ولا ينم، وللكرامة عنده المقام الأول. فما رؤى فى موضع يزرى بالشرف، أو ينافى الكرامة، وكان له حسن ذوق، ولطف حس، فى كل شىء، فى حديثه، فى اختيار أصحابه، فى لباسه، حتى فى طعامه وشرابه، وكان جليداً، صلباً، صبوراً، قاسياً على نفسه الى حد لا يطاق الصبر عليه، وما ظنك برجل عكف فى بيته حولا كاملا لأن يده لا تطول، ولو شاء أن يلعب بالذهب لتم له ذلك، ولكنه لم يكن يحب أن يتطول عليه صديق بيد له عنده أو عارفة يسديها اليه.

هذا هو السيد محمد المويلحى وما خفى من جوانب الرحمة فيه وصدق القول، والوفاء للأصدقاء أكثر مما كان ظهر للناس، وكان رحمه الله يستحيى الى حد الخجل من الثناء، فما أجدر شباب اليوم أن يتحلوا بسجاياه، وأن يباركوه فى قبره بطلب الرحمة له، فقد كان فى سمو الروح أسوة، وفى علو النفس قدوة.

وان تك أفنته الليالى وأوشكت فان له ذكراً سيفنى الليالياً

اسماعيل شيرين

تمهيد

هذه رسالات فى الأخلاق ، لعلاج النفس ، وطيب العيش ، حتى تتسنى لها سعادة الحياة . لم ننشئها من لدنا إنشاء ، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعا ، وإنما هى ضوء مقتبس اقتباس انقطاعنا إلى المطالعات فى كتب الأوائل والأواخر من شرقيين وغربيين ، وثمرة مجنية من مشاهدات الزمن ، وتجارب الأيام ، مما جعلناه لنفسنا درسا فى تقويم النفس ، عسى الله أن يكون قد نفعنا بها شيئا قليلا ، والقليل فى شفاء النفس كثير ، ولا فضل لنا فيها الا مثل فضل النحل ، تجنى من أثمار الأشجار ، وأكمام الأزهار ، ما تحوله فى بطونها ، وتمجه للناس شهداً جنياً فيه شفاء للصدور ، ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس عسى أن ينتفعوا إن شاء الله منها بالشىء الكثير ، وليس تقديمنا إياها لهم ، فى منزلة أوامر الطبيب للمريض ، بل فى منزلة دواء مجرب ، من مريض الى مريض ومن عاجز مستزيد الى طالب مستفيد .

محمد المويلحى

بساطة الفلسفة

وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسائر العلوم من الغموض والابهام، والحشو والتعقيد، والزيادة والنقصان، واختفاء المتون تحت كثافة الشروح، فاذا جرى ذكر الفلسفة بين الناس يوما عدوها علما من العلوم الزائدة التى يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون عامة الناس، ثم اختلفوا فى ماهيتها، فمنهم من يراها أصلا يتفرع عنه الالحاد والزندقة. ومنهم من يعتبرها آلة للشك وطريقة عوجاء سوفسطائية يقلب المشتغلون بها الحق باطلا، والباطل حقا، كما يشتهون، بسعة احتيالهم فى صناعة البرهان. والحقيقة أنها ليست فى شىء مما قرت عليه ظنون الناس وأوهامهم فيها، وأنها هى العلم الواضح، والنور الساطع، الذى يهتدى به الانسان الى سعادته ويسترشد الى جمال النظام فى العمران، وهو علم عام لا تختص به فئة دون فئة، وفى قدرة كل إنسان أن يتناوله ويأخذ بأحكامه، وإن فى نفس كل امرىء لقبسا من الفلسفة وان لم يكن فيلسوفا، كما أن فى نفس كل إنسان خيالا من الشعر، وإن لم يكن شاعراً.

وينقسم هذا العلم الى ثلاثة علوم : علم الآلهيات ، وعلم الطبيعيات والرياضيات ، وعلم الأخلاق . أما علم الآلهيات فخاص بالدين ، وأما علم الطبيعيات والرياضيات فهو علم شائع معروف ، وأما علم الأخلاق فهو سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة ، وهو أهم هذه الأقسام لتوقف سعادة الانسان عليه فى حياته .

ومما يغنينا عن الشرح والاسهاب ، فى أن أهم مايطلبه الانسان من الفلسفة هو الأخذ بفضائل الاخلاق ومحاسنها ، والتخلى عن رذائلها ومساوئها ، أن نذكر شيئا من سيرة شيخ الفلاسفة ، الذى بلغ درجات الكمال الانسانى ، بسياسة نفسه ورياضتها على الفضائل .

كان سقراط رجلا نحاتا للتماثيل فى أول عمره ، فبرع فى صناعته ، وفاق فيها الأقران . ولما بلغ الثلاثين من عمره ، أحس من نفسه ميلا الى البحث عن الحقيقة ، ينشدها أنى وجدها . وكفل له بعض أغنياء « أثينا » ما يكفيه مؤونة السعى وراء رزقه ، فانقطع للدرس والبحث ، حتى بلغ درجة عالية أرته أن مباحث الفلسفة بين العلماء فى زمانه ، لاتكفى لتهذيب النفس وسعادة الحياة ، لانحصارها فى أوليات

العلل والأسباب ، فصرف اجتهاده الى أن ينزل بها ، من المجردات الى الموجودات ، التى يسهل على الانسان تناولها بحكم الطبيعة ، فقصر همه على علم الأخلاق ، الذى يرشد الناس الى سعادتهم فى معيشتهم ، بوقوفهم عند حدود الفطرة الغرزية ، ومعرفة الحقائق ، واستفظاع الرذائل ، واستبشاع الأباطيل والأضاليل ، وكف الأذى ، ومقت الظلم ، وحسن الطاعة للشرائع الوطنية ، واحترام واجبات الانسانية ، ورياضة النفس على الصبر والتجلد ، وكبح جماحها عن الاسترسال فى الشهوات ، والقناعة بالكفاف دون التهالك على الثروة والغنى ، مع الشجاعة والاقدام على ما يدفع المنكر والمكروه عنها وعن الناس .

وكان القول عنده فى الفلسفة مقرونا بالعمل ، وتأدية الواجب ، بخلاف الباحثين من أهل زمانه فى الفلسفة ، حتى انه ترك دروسه ثلاث مرات ، وانتظم جنديا فى سلك الجند ، لدفع العدو عن بلاده فكان محل الاعجاب لما أظهره من الشجاعة ، ومما يذكر له فى تلك المواقع التى شهدها ، أنه رأى أحد الجنود فى أيدى الاعداء مثخنا بالجراح ، فقاتل عنه حتى انتزعه منهم ، ولم يكتف بذلك بل نزع عن صدره

شارة الشرف التى نالها لحسن بلائه ، وحلى بها صدر الجريح ورآه أولى بها منه . ومن مواقفه أيضا أنه بقى يقاتل حتى لم يبق من جيشه كله فى ميدان القتال غيره مع القائد، ووجد فى ساحة الميدان أحد القواد ساقطا عن جواده ، فحمله على كتفه حتى وضعه فى مأمن .

تلك درجته فى الصناعة ، وهذه رتبته فى الشجاعة ، واليك منزلته فى الثبات للدفاع عن الحق ، فمن ذلك أنه لما صار عضوا بالانتخاب فى مجلس الشيوخ ، ذهب مع أعضاء ذلك المجلس لرآسة اجتماع عام من أهل أثينا ، عقدوه لمحاكمة بعض القواد ، الذين انتصروا فى موقعة بحرية انتصارا مذوراً ، ولكن حالت العاصفة بينهم وبين دفن موتاهم ، وكانت شريعة أثينا تقضى بحكم الاعدام على كل من يغفل دفن الموتى ، فأرادوا تطبيق هذا الحكم على هذه الحادثة ، فقام سقراط للأخذ بناصرهم وجعل يدافع عنهم ويظهر ما فى هذا التطبيق من الخطأ الفاحش والظلم المبين ، وبلغ من تهور العامة وتهوسهم فى الاصرار على معاقبة أولئك القواد بالاعدام أنهم طلبوا أن يسرى هذا الحكم على كل من يعارض فى تنفيذ ذلك القانون ،

فدفعت سقراط شجاعته الى الوقوف موقف المعارضة وحيدا فى هذا الملتحم، غير مبال صياح العامة ولا مكترث لوعيدهم، وظل يناضل ويشهر بقسوة هذا الحكم الذى يضع من قدر من يعمل به ويلبسه ثوب الخزى والعار، ويسمه بميسم نكران الجميل لمن كانوا سببا إلى انقاذ الوطن ورد هجمات العدو عنه.

هذا مثال القاضى العادل فى سقراط، ودونك مثال الرجل الحر بين أهل وطنه: تغلب أهل اسبارطه على أهل أثينا، وأسقطوا فيهم حكومة الشورى، وأقاموا لهم حكومة استبداد مؤلفة من ثلاثين حاكما، انتخبوهم من بين المترفين من أهل أثينا، فكان من بوادر أعمالهم، أن حظروا على سقراط درسه فى تربية الشبان. فلم يثن ذلك من عزمه، بل قام فى وجه وعيدهم غير مبال إياه، واستمر على تحريض الأمة لاسترداد حريتها وعزل هؤلاء الظلمة، ولم يرعه ما راعها من إطلاق يد الظلم فيها بالقتل والفتك، حتى ثارت بفضل ثباته على أولئك الحكام فقتلت منهم من قتلت، وطردت من طردت، وكان الرجل فى أوقات تخليه عن الاشتغال بالمسائل العامة، يعيش بين

الناس معيشة البساطة الفطرية ، قاصرا همه على تعليم الشبان من أهل اثينا ، ويرى أنه يخدم وطنه أحسن خدمة بحسن تهذيبهم وتربيتهم ، وقد أخذ على نفسه أن يهدم مارسخ فى الأذهان من الأضاليل والأباطيل ، التى تلحق العار بالنوع الانسانى . فما كان أجلّ منظره عند ما كنت تراه يخطب الناس منتقدا أعمالهم مقبحاً أفعالهم داعيا إياهم الى التعلق بالفضيلة من طريق الوقوف على الحقائق ، وهو رجل فرد بين أمة ضالة لا جاه له ولا مال ، غير متطلع إلى اطماع ، ولا متطلب لدنيا . وعاش زمانه لا هم له الا الوصول الى هذا الغرض الجليل يسير فيه تارة بالحدة ، وتارة باللين . على حسب ما يمله عليه حسن النظر وصواب الرأى فى المنفعة العامة . ولم يكن كأمثاله من العلماء الذين يتخذون لدروسهم مكانا خاصا ، ووقتا معينا ، بل كان يلقى على الناس دروس الفلسفة والحكمة ، فى الطرق المسلوكة ، والأسواق العامة ، وكان ينتهز كل فرصة لارشاد القاضى فى وظيفته ، والحاكم فى منصبه ، والصانع فى حرفته ، والزارع فى حراثته ، وينزلهم منه عند النصح والارشاد منزلة الأبناء والأخوة فى الحنو والاشفاق ،

لا منزلة الطلبة ، فى خضوعهم للاستفادة والتعلم ، وكان يستدرجهم فى الحديث ويستجلبهم ، فلا يشعرون إلا وقد بسطوا له ما تكنه صدورهم ، من خفايا سيرتهم ، ثم يتلقون عنه ما يغرس فيهم الاعتقاد ، بأن سعادة الحياة بين كل الطبقات ، لا تتم لاحد الا بالعمل الصالح فى نفسه ، والعمل الصالح بين أهله وصحبه ، والعمل الصالح بين أبناء جنسه ، ومما كان يكرره على أسماع العامة فى مواقفه بينهم قوله لهم :

« اعلموا أنكم إذا رضيتم أن تكونوا عبيدا للشهوات فلا سبيل لكم الى الفضيلة التى تصعد بكم الى معارج السعادة . ولا تأثير لصوت العقل والحكمة ، إلا فى النفوس الطاهرة ، التى تسعى جهدها للتخلص من قيود الشهوات ، ولا وصول الى ذلك الا باطراح فضول العيش ، بما لا حاجة اليه فى الفطرة الطبعية ، فاذا بلغتم ذلك من أنفسكم بطول التفكر والتمرن ، انجلت عنكم ظلمات الجهل ، وانقشعت سحب الاضاليل . وليست قوة الشهوات هى التى تتغلب على النفس ، ولكن الجهل هو الذى يضعف النفوس ويذلها ويغلها فى تلك القيود ، فعليكم

التغلب على سلطان الشهوات الذى يسلطه عليكم الوهم والجهل لتخرجوا من الظلمات الى النور وتذوقوا حلاوة الفضيلة التى بها تمام السعادة »

ثم انتهى أمر سقراط ، الى ما ينتهى اليه أمر كل عالم فاضل بين نصراء الجهل وأهل الأهواء والأغراض ، من الحسد له والحقد عليه والسعاية به ، ليتخلصوا من عواقب نصحه ، وإرشاده للناس ، وكشف الضلالات عن أبصارهم حتى يبقوهم على ما هم فيه من الجهالات ، ليسهل لهم التسلط عليهم وحفظ مكانتهم فيهم ، وولوع ذوى الجهل بذوى الفضل قديم فى العالم ، فكادوا له ما كادوا ، وائتمروا به فأشاعوا عنه ما يستنكر لديهم من الأقوال ، ويستقبح من الأفعال ، حتى أثاروا عليه طبقات الجهلاء فأعلنوا كراهته وبغضه ، وطلبوا محاكمته ، فتقدم أحد المفسدين منهم الى مجلس الشيوخ وادعى عليه أنه ينكر دينهم ولا يؤمن بآلهتهم وأنه يفسد عقول الشبان والفتيان ويبطل عقائدهم ، بما يلقيه عليهم من الأقوال الباطلة والأفكار المضلة . فانخدع مجلس الشيوخ بهذه المفتريات وخاف أعضاؤه على أنفسهم من ثورة العامة فطاوعوهم

وحكموا عليه بالموت بتناول السم . وهنا موقف الاعجاز في مقابلته للحكم بالرضا والقبول . وقد عرض عليه بعض تلاميذه أن يجدوا له مخلصا ، ويعدوا له أسباب الفرار ، من هذا العقاب الجائر ، والظلم الفادح ، فزجرهم وقال لهم لست أرضى أن أكون مثالا للناس فى الخروج على حكم القانون ، ومن ارتضى أن يعيش فى بلد فليمتثل لما تقضى به شريعته واستمر فى تدريسه كأحسن ما كان ، حتى حان وقت التنفيذ ، وكان يلقى على تلاميذه فى ساعته الأخيرة مقالته فى خلود النفس ، وتناول السم بيده وهو ساكن الجوارح مطمئن النفس باسم الثغر.

وكان مثل سقراط ، فى فلسفته كمثل ضوء الشمس الساطع فى هذا الوجود ، فلما مات تحلل هذا الضوء الى طيف ، فأخذ كل تلميذ من تلاميذه بلون منه ، فالكل منه مقتبس واليه راجع ، وان اختلفوا اختلاف تلك الألوان بتفرقهم فانهم يمتزجون امتزاجا بتجمعهم ، فذهب افلاطون بفلسفته ، الى القول بخلود النفس ، وسما بها الى عالم المجردات ، ورأى أن سعادة النفس قائمة على الاتصال بذلك العالم العلوى .

وقصر « انتستين » فلسفته على علم الأخلاق، وجعل سعادة الحياة، فى احتقار الجاه والمال، ونبذ الشهوات، والعمل بالفضيلة، ولما كانت الغاية عنده من هذا الوجود، هى بلوغ سعادة النفس، فقد قرر أن الفضيلة وحدها هى الطريق الى تلك الغاية، وأن ما كان من أفعالنا خارجا عنها فهو إما ضار وإما غير نافع.

وذهب « اريستيب » الى أن اللذة، هى الغاية المقصودة من الحياة، وأن شعور الانسان هو المعيار الذى تقاس به اللذات، فيترك الانسان أدناها لأعلاها. ولو قيل إنه انحرف عن مذهب أستاذه سقراط بهذا التحديد، إلا أنه عاد فقيده بأنه لابد للانسان أن يجعل من نفسه، سلطانا له على لذته، ولا وصول الى ذلك الا بانماء القوى العقلية بالتربية.

ثم جاء « ارسطو » وهو تلميذ « افلاطون »، فتوسع فى مذهب أستاذه وجعل أساس فلسفته البحث عن العلل والمعلولات، وسمى كل بحث منها علما، ليرجع بذلك كله الى علة العلل، فجمع العلوم البشرية فى دائرة فلسفته، فاستوعب بتآليفه التاريخ الفلسفى، والمنطق، والالهيات

والطبعيات ، وتركيب الأجسام والنباتات ، والأخلاق ، والسياسة ، والآثار القديمة ، والتاريخ الأدبى ، واللغات ، والنحو ، والبيان ، وفلسفة الفنون . وقد جعل لكل نوع من هذه الأنواع ، روابط وقواعد علمية . ويقال إنه لم يضع وحده كل ذلك ، بل أعانه عليه قوم آخرون فى عهد الاسكندر تلميذه ، لاتساع جاهه ، وكثرة ماله ، والسعادة عنده تنحصر فى السعى والعمل على مقتضى الفضيلة ، وارتقاء النفس الى العلويات .

ثم جاء « ديوجين » وهو تلميذ « انتستين » المتقدم ذكره ، وذهب الى أن الفلسفة كلها فى الزهد ، والحرمان الاختيارى ، وفى ازدراء ما اصطلح عليه الناس من عادات وآداب واصطلاح ، وقد دعا الناس تابعيه بالكلابيين ، لأنهم كانوا يهرون وراء الناس بذكر معايبهم ونقائصهم ، ومجابهتهم بالتقريع والتعيير ، وقد جعل « ديوجين » نفسه لوحا يقرأ الناس فيه فلسفته حاضرة ، فكان يمشى بينهم عارى البدن ، حاسر الرأس ، مكتفيا بالخشن من القوت ، يتوسد فى نومه عتب الهياكل . وقد وصفه أفلاطون فقال عنه « ان سقراط يهذى ويهتر » ، فان سلطانه على نفسه

ورياضتها على احتمال المشاق ، وتمرينها على الحرمان الاختيارى ، وتخلصه من ربقة الشهوات ، كان نصيبه الأوفر من ميراث سقراط ، وقاعدة فلسفته من أجل القواعد ، وهى أنه لا ملك للانسان الا ما تملكته نفسه ، لا ما تملكته يده ، لان ما يملكه الانسان فى الحقيقة ، هو ما كان فى نفسه لا فى يده ، وما عدا ذلك فهو فى يد الدهر . وكان يقول فى كلامه انى لأسمع صوت الدهر يناديني ، « ليس بين المخلوقات كلها ، من هو خارج عن سلطانى الا هذا الكلب العقور » ، (يعنى نفسه) . ووقع مرة أسيرا فى يد الأعداء ، فعرضوه للبيع فى السوق ، فكان إذا سأله من يساومهم فيه « ماذا تحسن من عمل » ؟ قال « آمر الناس وأنهاهم » . ولمح فى تلك السوق شريفا من أشراف القوم فى زينته وخيلائه فقال « بيعونى من هذا فانى أراه يحتاج الى سيد » وكان البائع ينادى عليه فى السوق « من يشترى هذا العبد » ، وهو يقول « من يشترى سيده » ؟ ثم قال للذى اشتراه « اسمع لما آمرك به منذ اليوم وتقبله بالطاعة » .

ثم جاء من بعدهم « ابيقور » فجعل لباب الفلسفة فى علم الأخلاق ، وأن الغرض الوحيد منها هو البحث عن

الطريقة التى تجعل الانسان سعيدا ، فى حياته ، ولم ينظر الى بقية أقسام الفلسفة ، إلا من هذا الجانب ونبذ ماوضعه أرسطو من القواعد وما حدده من الحدود ، وربطه من العلوم بالمنطق ، ورأى أنه يمكن الانسان أن يهتدى ، بغير هذه القواعد ، إلى معرفة الحقيقة كما هى ، ووضع فى ذلك قانونه المشهور ، وملاك السعادة عنده اللذة ، وهو يقول ، إن من تمعن فى أطوار الحيوانات والأطفال ، علم أن الطبيعة لم تجعل لنا حدا نسعى وراءه سوى تلك اللذة ، وهى اللذة الجسمانية المحسوسة ، ويقول ايضا . « انه لا يعرف للسعادة وجودا فى غير تلك اللذة » ولكنه وضع فرقا بين اللذة فى الحركة واللذة فى السكون ، وتعريف هذه اللذة عنده « أنها ليست فى الانتقال من حالة التعب الى حالة الراحة ، بل هى حالة البقاء على الراحة » ، يعنى بقاء الجسم فى مركز التوازن ، وبعبارة أخرى هى فى الراحة التى يجدها الانسان عقب قضاء رغبته ، او هى فقدان الألم بأنواعه ، أو هى حالة سكون النفس ، لا حاجة بها الى شىء ، وهو لا ينكر وجود لذة للروح بجانب لذة الجسم ، ولكن لا نصل عنده بينهما ، فان لذة الروح ليست إلا

لذة الجسم التى صورناها لك مرسومة فى الحافظة ، أو ماثلة فى الخيال ، أو مرجوة فى المستقبل ، وأن مدة الزمن هى الفارق المعنوى بينهما . وعلى هذا تكون اللذة شيئا ثابتا موجودا تحت تصرف الروح . ولكن ماهو طريق الوصول الى هذه اللذة المزدوجة ، وهذه السعادة الدنيوية؟ يقول « ابيقور » « إن الطبيعة بفضلها وعطفها علينا ، قد وضعت فى أيدينا كل الوسائل ، ومهدت لنا كل الطرق الوصول إلى تلك السعادة . وجماع الأمر كله فى هذا الطريق ، أن نميز بين الرغبات التى تدور فى صدورنا ، فنعرف ماهو طبعى ضرورى ، مثل الأكل والشرب ، وما هو طبعى غير ضرورى ، كالرغبة فى أصناف الأطعمة وألوانها مثلا ، وما هو ليس بطبعى ولا بضرورى ، مثل فضول العيش وكمالياته . فاذا عالجنا النفس للتخلص من أسر الرغبات فى القسمين الأخيرين ، سهل علينا الوصول الى منتهى طريق السعادة . لان الجوع والعطش « هما الشيئان الطبعيان دون غيرهما » ومن ذا الذى يعجز ان يجد كسرة من الخبز ، أو جرعة من الماء ، فالقناعة والزهد والتقشف وراحة البال هى الغاية التى تنتهى اليها فلسفة

« أبيقور » المؤسسة فى ظاهر الأمر على اللذة . ويشهد له أعداؤه أنفسهم بأنه عاش هذه العيشة مطبقا أفعاله على أقواله ، ولكن جاء بعده من تلاميذه من خلط فيها ، وانحرف بها الى فلسفة « اريستيب » بما جعل الناس يسمونها « الفلسفة الشهوية » .

هذا بعض الشيء من أصول الفلسفة ولبابها ، فى بساطة ووضوح ، دون التعقيد والابهام ، والاستغلاق وشوائب الجدل ، التى عمد اليها المشتغلون بعلوم الفلسفة فيما بعد حتى طرحوا الفلسفة جانبا ، واقتصر بعضهم فيها على علم المنطق واعتبروه أساسا لها ، مع أنه آلة من بعض آلاتها لميزان القول والفكر ، وغايته تمحيص التعبير من الخطأ وهو أشبه شيء بآلة النحو فى اللغة وقسموه ، إلى خمسة اقسام . قسم يؤدى الى الحق والصدق فى سائر احواله ، ويسمى البرهان ، وهو صناعة اليقين . وقسم يؤدى فى أكثر أحواله الى الصدق ، وقد يكذب يسيرا ويسمى جدلا ، وهو صناعة الظنون . وقسم يؤدى الى الحق مرة ، والى الباطل أخرى ويسمى خطابة ، وهو صناعة الاقناع . وقسم يؤدى فى حالاته الى الكذب ،

وقد يصدق قليلا ، ويسمى سوفسطائيا ، وهو صناعة المغالطة ، وقسم يؤدى الى الباطل المحض ويسمى شعريا وهو صناعة الخيال .

فهذا العلم الذى يشتغلون به من الفلسفة لا يفيد الغرض المقصود منها ، وهو تثقيف الأخلاق ، وتهذيب الطباع ، والسير على مقتضى الفضيلة ليصل الانسان بذلك الى سعادة الحياة وسعادة الممات.

وما نفع الانسان من تلك القياسات والمغالطات فى شفاء النفس من رذائلها ، وتحليتها بفضائلها ؟ ولعمرى لو أنك جئت بألف عالم من علماء المنطق ، وجئت أمامهم مثلا بهذا الذى يعضه الفقر بنابه ، وهذا الذى يقدم للقتل بين النطع والسيف ، وهذا الذى يشكو ويئن وهو تحت أثقال الذهب التى ابتزها بطرق الخيانة والنذالة واكتنزها بحبائل الغش والخداع ، وهذا الذى يهاب الخطوب ، ويفزع من الكوارث ، وهذا الذى أضناه المال والسأم وهو فى سعة من جاهه وماله ، وهذا المريض ، وهذا الجريح ، وهذا الأسير ، وتلك الثكلى ، ثم أخذوا ينثرون عليهم ما فى كتبهم من الجدل والسفسطة التى قضوا العمر فى طلابها

وينفثون ما فى صدورهم من الأقيسة والقضايا أكان ذلك ينفعهم فى شىء ؟ أكان يشفيهم من أدوائهم ، ويسكن من أوجاعهم، فينقلب البائس وقد انفرج بؤسه ، والحزين وقد سرى عنه ، والمحتاج وقد خف عنه عبء فقره ، والمعذب وقد قويت عزيمته على احتمال عذابه ، والخائف وقد ذهب عنه روعه ، والغنى وقد علم ان الغنى غنى النفس لا غنى المال ؟

وماذا يفيد الناس فى هذا الموقف ، أقوالهم المشهورة وقضاياهم العقيمة فى منطقهم ، مثل قولهم « لو أردنا أن نقيم ألف دليل على أن هذه الهضبة من الذهب لما عز علينا . » ؟ وماذا يكسب الناس من هذه المغالطات التى يرددونها فى كتبهم مثل قولهم : « لا يودع السر عند الرجل النائم ، بل يودع عند الرجل الحازم ، والحازم يقظ ، فالحازم إذن لا ينام » أو كقولهم فى هذه القضية أيضا « كل ما لم يكن قد ضاع منك فهو معك . وأنت لم تضع لك قرون ، فعندك إذن قرون » ، ودعك من قولهم فى الغناء ، « لا تسمع ، فتطرب ، فتجود ، فتفتقر ، فتغتم ، فتعتل ، فتموت »

وما أغنى أولئك المصابين فى أنفسهم عن هؤلاء الذين

يشتغلون بهذا اللغو الباطل من الفلسفة، وما أحوجهم الى فيلسوف واحد يعلم حقيقة الفلسفة وبساطتها، فيهديهم الى ما يهذب نفوسهم بالفضائل، وينقيها من الرذائل، ويفيض عليهم من أشعة الحكمة، والموعظة الحسنة، ما يقشع عنهم ظلمات ما هم فيه من الأحزان والأكدار، ويكشف لهم عن حقائق الأشياء فى هذه الحياة، ويبين لهم ما هو الضرورى من العيش، وما هى الفضول والزوائد، التى أورثت الانسان أنواع البلاء، وأفانين الشقاء، وذلك هو لباب الفلسفة، وذلك هو علم الأخلاق، وانه لقريب التناول، سهل المأخذ، لا يستعصى على الفهوم، ولا تكدله القرائح، بل هو فى سهولة قصة من القصص، أو حكاية من الحكايات؛ لا يتعذر على أى إنسان فهمه، لأنه يتناول أدوار حياته من أول عمره الى منتهاه، ويرشده الى الفضيلة التى لا يمكن بغيرها، أن يعيش الانسان سعيداً ويموت سعيداً. وهذه الفضيلة تقوم على أربع دعائم: الأولى، العقل، وهو التميز والروية وصحة الحكم. والثانية العفة، وهى الورع وضبط النفس عن الشهوات المؤذية الفانية. والثالثة الشجاعة، وهى الاقدام والثبات عند نزول

المكروه . والرابعة العدالة ، أى الاستقامة وهى صحة الأفعال ووضعها فى مواضعها اللائقة بها.

والفضيلة تنحصر بالاجمال فيما يجب على الانسان للانسان ، وفى قيمة الأشياء فى حد نفسها ، وفى تأثير الأشياء فى النفس ، وإحساس النفس إياها . وفيما يصدر عنها من الأعمال ، وفى أن نعلم المعنى المسمى خيرا ، وهو الأمر المرغوب فيه لذاته . والمعنى المسمى شرا ، وهو المرغوب عنه لذاته ، والمعنى المسمى نافعا ، وهو السبب المؤدى الى الخير ، والمعنى المسمى ضارا ، وهو السبب المؤدى الى الشر ، وكل إنسان فى الوجود ، قادر على مزاولة الفضيلة ، والسير فى طريقها ، وقد وضع الله سبحانه وتعالى ، بذورها فى فطرة الانسان ، وغرس جذورها فى الصدور ، لتنمو فيها بالممارسة ، ولكن من سوء حظ الانسان أن انحرف عن الطبيعة ، وتسلل من الغريزة ، واستسلم للأهواء الباطلة ، والأوهام الفاسدة ، فغطت على بذور تلك الفضيلة ، ونمت مكانها بذور الرذيلة .

وجملة القول فى هذا المجال المتسع ، أن علم الأخلاق هو المقصود بالذات من الفلسفة ، وان أصوله قديمة فى العالم

اهتدى اليها منذ الزمن الأول فلاسفة الهند ، و فلاسفة الصين ، وفلاسفة اليونان ، وفلاسفة الرومان ، وإذا كنا خصصنا بالذكر فى كلامنا عن الفلسفة ، فلاسفة اليونان ، فلأنهم المصدر الذى ارتوى منه فلاسفة الرومان ، ومن بعدهم فلاسفة أوربا فى العصور المتأخرة الى يومنا هذا ، فكلهم عيال عليهم ، ولم يبرّز العلماء الاوربيون ، وان كانوا برزوا فى كل شىء ، على علماء الاخلاق فى الأزمان السابقة ، وكل ماهنالك ، أنهم فرعوا على تلك الأصول ، وشرحوا وفسروا ، وأطنبوا وأسهبوا ، ولكنهم لم يأتوا بأكثر من الطراز على الثوب ، والهداب على الستر. والكل إجماع على أن محاسن الأخلاق لا تأتى الا من طريق الفضيلة ، التى بينا لك أركانها ، وأن سعادة الحياة لا تنال الا برياضة النفس عليها ، حتى تصير فيها ملكة ، وأن كل إنسان قادر على مباشرتها ، والسير فى طريقها ، وأن بذورها كامنة فى الصدور بفطرة الخالق التى فطر الناس عليها ، لتنمو فيها بالممارسة ، ولكن من سوء حظ الانسان ، أنه تزحزح عنها ، واشتغل بالباطل فى اجتماعه ، وغفل عن حقيقة سعادته ، وضل طريقها ، وظل يبحث

عنها من غير وجوهها، وينشدها ولا يدركها، إذ خرجت النفوس عن أطوارها، وتسللت من غرائزها. فأصيبت بالأمراض المختلفة من الأهواء والأطماع والآمال والأمانى، فكان لا بد للانسان فى معالجة نفسه، أن يرتد الى حكم الطبيعة، وأن يبحث ويفكر، ويحكم عقله، ويشحذ إرادته، ويغلب القوة الحاكمة، على القوة الواهمة، ويكشف بنور الحقيقة، ظلمات الجهل والوهم، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة، فلا يشحن نفسه بالرغبات، ولا يضعفها بالرهبات، ولا يسلمها للهموم والغموم، ولا يتركها للجزع والفزع ولا يعرضها للوسواس والهواجس، وأن يعودها ألا تعتبر كل هذه المطالب الطويلة العريضة التى تشغل أطماع الناس، فى هذا العمر القصير، إلا أمورا تفهة لا يعنى بها، ولا يؤبه لها، ولا يؤثر فيه حرمانه إياها، وما أحقر أمور الدنيا وأصغرها فى جانب الابدية، كما أنه يوطن نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب، ومنازلة النوازل، فلا يصيبه شىء منها، إلا وقد أعد له عدته، وقدر وقوعه، حتى لا تفاجئه الأيام بأمر جديد لم يكن فى حسبانه، ولا تباغته بحادث إلا وقد اتخذ لنفسه

موئلا من الحكمة يأوى اليه ، ويتدرع بحصنه ، وأن يكون هو هو على حال واحد ، وموقف واحد ، أمام صروف الدهر وبلائه ، وأيام هنائه وصفائه ، وأن يكون هادىء النفس ، ساكن البال ، على كل حال ، وان يكون هو المعنى بقول الشاعر لممدوحه :

وحالات الزمان عليك شتى
وحالك واحد فى كل حال

فالذى يتعين علينا إذن أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها ، وأن نبين لها حقيقة الاشياء ، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات ، ونكشف عن عوامل الرذيلة التى عارضت نمو الفضيلة فنشرح أسواءها وأدواءها ، ونصور بشاعتها وفظاعتها ، ونبسط أضرارها وشرورها ، حتى تعافها النفس وتستنكفها وتبتعد عنها ، وتنفر منها ، فتطهر من الادناس والأرجاس وتبدو بذور الفضيلة ، وبربو غرسها ، وهذه الطريقة فى رأينا أدخل على النفس ، وأفعل بها من طريقة مدح الفضيلة وتزيينها وتبيين محاسنها كما جرى عليه السلف ، فلو أنك كررت على الانسان فى كل يوم أن الخير

أحسن من الشر ، والحلم أفضل من الغضب ، والصدق خير من الكذب ، لأقرك على ذلك كله ، ولكن طول التكرار لهذه الألفاظ ، لا يترك فى نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها ، مثل ألفاظ الوعظ فى خطب المنابر يسمعها ولا يدرك العمل بها . ولقد كان لى صاحب لا يكذب فسألته يوما كيف راض نفسه على ذلك ، وقل من لا يكذب فى عصرنا ، فقال مارضتهـــا وما عالجتها ، ولكننى عاشرت فى صباى كذابين يبتكران فى الكذب ويخترعان ، فكنت أشاهد من تكذيب الناس لهما ، وسوء سمعتهما ، وما يحل بهما من الخجل والخزى وما يفعل بهما النسيان ، فيفضح الكذب ، وما يصيبهما من الضرر إن قالا صدقا ، ويأبى عليهما الناس إلا أن يكون كذبا ، وهان أمرهما على أصحابهما فكانوا ينفضون من حولهما ، فشاهدت من سوء أثر الكذب وقبح أمره ، ما كرهنى فيه طول الحياة .

وقد آن أن نبدأ ببعض الفصول فى هذا البـــاب ونسأل الله الهداية فى المبدأ والمآب .

الغضب

اعلم — وفقنا الله وإياك الى الرشد — أن مانسميه بصروف الدهر ، وإحن الزمن ، ومحن الحياة ، ومصائب الدنيا ، وأكدار العيش ، وسوء الحظ ، يتولد كله من رذيلة الغضب . وكما يقول الفرنسيون عند كل حادثة « فتش عن المرأة » فكذلك اذا رأيت بلية من البلايا أو نازلة من النوازل فابحث فيها تجد أصلها من بذور الغضب .

فالغضب أبشع أمراض النفس كما أن الجذام أبشع أمراض الجسم . والغضبان يشترك مع المجذوم فى تشويه الوجه ، وطمس معالم حسنه ، ويزيد عليه كونه مصدر النوائب ، ومنبع الرزايا . وفى الحديث الشريف « فر من المجذوم فرارك من الأسد » ، والغضبان أسرع من الأسد بادرة فى أنواع الشرور وأسباب المهالك .

وقد عرف أحد العقلاء الغضب فقال : « الغضب جنون متقطع » ، وإنك لو نظرت الى الغضبان وهو فى اختلاط عقله ، واختباط جسمه ، وتقلص شفتيه ، وبحة

صوته ، وازدحام أنفاسه ، واحتدام وجهه ، وانتفاخ أوداجه ، وارتعاش يده ، واضطراب أعصابه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر — لحكمت حكما قاطعا ، بأن المجنون أسلم عقبى ، وأقرب منه إلى الحسنى . ولو أبصر الغضبان وجهه فى المرآة ، وهو على هذه الصورة المنكرة التى تقذى العيون بالنظر اليها ، لاستحيا من نفسه ، ولخجل ممن يراه . وقد دخل رجل على افلاطون الفيلسوف ، فرآه منحنيا وبيده سوط ، وأمامه خادم ، كان شرع فى تأديبه ، فلما أدرك الحالة التى يكون عليها الغضبان فى غضبه أمسك عن ضرب الغلام وكظم غيظه ، وبقى منحنيا ذلك الانحناء ، فسأله الرجل عن هذه الوقفة ، فقال له الحكيم أردت أن أضرب هذا الخادم فلما رأيت نفسى على هذه الهيئة ، قصدت تأديبها بالبقاء عليها حتى تثوب عن غيها . وقال النبى عليه السلام « ليس الشديد بالصّرعة وانما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »

ولو جعلت لأحد المترفين المتأنقين الذين يقيسون خطاهم بمقياس ، ويتبسمون بمقدار ، ويتلفتون بميزان ، ضيعة من الضياع ، على أن يقطب وجهه ، ويقلص شفتيه

وينكر صوته ، ويتابع زفراته ، ويغصّ بريقه ، لاستنكف لنفسه أن يفعله . ولكن أغضبه فى دانق تضحك من هذه الصورة أياما .

وكم فتح الغضب أبوابا للسجن ، ونصب أعوادا للصلب ، وفتل حبالا للخنق ، وبسط النطع ، وسلّ السيف ، وأضرم نارا للحرب وقد يستر العقل آفات النفس ورذائلها ، إلا الغضب ، فانه يستر العقل ، ولا يتغلب على ظهوره شيء بل تراه يشق الجسم ، ويبرز منه شاكى السلاح ، فيقطع أواصر القربى ، ويفصم عرا الابوة والبنوة ، بل عرا الامامة والنبوة .

وللغضب درجات يصعد إليها واحدة إثر أخرى ، حتى يصعق صاحبه ، ويذهب برشده ولبه ، ويطير بصوابه ، ويجعل جسمه جمرة تضطرم وجذوة تشتعل .

والغضب كالحريق أوله شرارة ، ثم يكون منه ما يهول سماعه ، ويغول منظره . ولهذا يمكن العاقل بادىء الأمر ، أن يطفىء تلك الشرارة ، ولكن يتعذر عليه أن يطفىء نار الغضب ، إذا هى شبت واستعرت .

وأخف الغضب ما انتشر على اللسان ، بالسب

والشتم ، والصياح ، وأشده ما يبقى محصوراً فى الصدر يزحم بعضه بعضا ، فلا يلبث أن ينفجر بالتهور والجنون ، انفجار المرجل انحصر فيه البخار .

وقد عرف « أرسطو » الغضب فقال « هو إرادة مقابلة الشر بالشر » ولكننا نرى كثيراً من الناس ، ينشأ غضبهم عن تصور نية الشر من الغير ، لا عن وقوعه بالفعل ، وقد يفرطون فيغضبون على غيرهم لتوهم وقوع الشر منهم ، ومن المبالغات التى تذكر فى هذا الباب ، أن أحد أمراء اليونان القدماء بلغه من بعض حاشيته ، أن أحدهم رأى فى المنام ، انه يكيد له مكيدة ، ويدبر خروجاً عليه ، فغضب وأمر بقتله فى الحال ، وقال لو لم يجل فى خاطره هذا العمل ، لما رأى فى المنام رؤياه .

وهنا يجب أن ننظر الى الغضب ، هل هو من لوازم الطبيعة البشرية ، وهل يستعان به فى بعض الأمور — فلبيان الغرض الأول نقول : إن الأنسان من بين سائر الحيوانات ، أطبعها على اللطف ، وأميلها الى الرفق ، مادام باقيا على فطرته وغريزته ، ومن كانت هذه حقيقته فلا قسوة فيه ، والغضب قسوة . ولا نرى محبة أكمل من

محبة الانسان للانسان ، والعداوة كل العداوة فى الغضب ، والانسان حريص على السعى فى بقاء نوعه ، وفناؤه فى الغضب ، والانسان ميال بطبعه الى التجمع ، والغضب يشقه عن الجماعة ، والانسان يرغب فى نفع غيره ، حتى يكاد يرمى بنفسه فى الاخطار لخلاص من يعرفه ، ومن لا يعرفه ، والغضبان يرضى أن يقع فى النيران إذا جر معه غيره . وانظر الى الغضب فى تأكيد عبد الله بن الزبير لما اعتنق مالكا فى الميدان ونادى قومه :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

فلا يكون الغضب حينئذ من لوازم الطبيعة البشرية .

ولبيان الغرض الثانى نقول : الاستعانة بالغضب فى بعض الأمور ، مما لا تقتضيه الحكمة لأن الغضب شر ، ولا نفع يخرج من الشر ، ولا نسلم أن ما يعامل به الحاكم الجناة والمجرمين ، فى إيقاع العقوبات بهم ، من قبيل الاستعانة بالغضب ، لأنها ليست للايذاء ، بل هى تقويم وتثقيف ، ومن شرائط القضاء ، ألا يجلس القاضى للحكم وهو غضبان ، وقد يغلظ الطبيب على المريض بالحمية رجاء شفائه ، فان لم تخفف من مرضه ، منعه الأكل والشرب البتة ، ابقاء

على حياته ، فان لم ينفعه ، ركن الى الكى بالنار ، والبتر بالسلاح ، ليحفظ الأعضاء الصحيحة من عدوى ما يجاورها من الأعضاء السقيمة ، فهو يكوى ويبتر ، وليس فى صدره ذرة من الغضب ، ولا فرق بين الطبيب والحاكم فى معاملة مرضاهما . إلا أن الطبيب ينفع مريضه ، بتخفيف الآلام عنه حتى الموت ، والحاكم ينفع الجماعة بتشديد الآلام على مريضه (أعنى المجرم) حتى الموت ، فهو يعزر ، ويسجن ، ويضرب ، وينفى ، ويقتل ، وليس فى قلبه خردلة من الغضب وإنما هو رفق منه بالجماعة ، يجعل الذين يضرون الجماعة بحياتهم ، ينفعونها بمماتهم ، وهذا معنى قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »

قال «أفلاطون» : «العادل لا يضر أحدا ، والانتقام ضرر ، فالعادل لا ينتقم » وإذا كان العادل يستقبح الانتقام ، فكيف يستحسن الغضب الذى هو علته ؟ ومن هذا يخلص أن الغضب ليس مطابقا للطبيعة البشرية .

وقد قال بعض الحكماء « إن للغضب مواضع يجب استعمال جزء منه فيها لأنه ينبه من النفوس حميتها ، ويدفع بالمرء إلى اقتحام الأخطار فى ميادين الحروب . وإذا لم يكن

ثمة غضب ، فلا يكون لشجاعة الأبطال فى المعارك من شأن يذكر ، وإن فى قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذى يستعمله فيما يجب استعماله فيه » وهذا قول باطل ، لأن الغضب شر ، والفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه ، والوقوع فى جزء منه عبارة عن الوقوع فى الكل ، لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه ، وهو خلو منه ، لا يقدر على وقفه عند حد محدود ، فانه إذا خالط النفس أصبح آمراً لا مأموراً ، وحاكماً لا محكوماً ، والعقل الذى ألقت إليه النفس مقاليدها ، وأسلمته زمامها ، ليهديها سواء السبيل ، لا يقوم بوظيفته إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية ، أما إذا اختلطت به ، فلا يقدر على قيادة النفس فى طريق الحكمة ، لوجود مشارك مناقض له فى قيادتها .

ومن الأمور ما يكون تحت حكمنا ثم نصبح تحت حكمه ، مثل كلمة السوء ، إذا لم تتكلم بها ملكتها ، وإذا تكلمت بها ملكتك ، وكالمرء يكون مالكا نفسه على شفا هاوية ، فاذا سقط فيها استحال عليه أن يقف أثناء سقوطه ، وكالقوم يزحف العدو على حدود بلادهم ، ويكون فى

طاقتهم صده عنها ، فيتهاونون بأمره ، حتى يقتحم الأسوار فلا يملكون له دفعا ، وهذا مثال الغضب ، فانك إذا دفعته قبل أن يخالطك نجوت منه ، وإذا لم تدفعه ملكك .

وقال « أرسطو » « أى انتصار ينال فى الحرب بلا غضب ، وهو المحرك للحمية ، المولد للشجاعة ؟ ولكن يجب أن يستعمل كاستعمال الجندى الذى يقاد لدى الرئيس الذى يقوده » فرد عليه بعض الفلاسفة بأن دعواه باطلة ، لأنه إذا كان الغضب يمتثل للعقل ، ويقاد به ، فليس هو بغضب ، لأن الغضب يعصى العقل ولا يتبعه ، والغضب من شأنه المقاومة ، فاذا اندفع بشدته ، فلا يمكن صده مطلقا ، ويكون بالنسبة للعقل كالجندى العاصى الذى لا يطيع إشارة قائده بالتقهقر ، فاما أن يكون الغضب قابلا لما يأمره به العقل من الاعتدال والوقوف عند الحد المطلوب ، وحينئذ لا يسمى غضباً ، بل يجب أن يسمى اسماً آخر ، لأنه بهذه الحالة يخرج عن تعريف الغضب ، وهو من الأهواء النفسية التى لا يمكن العقل كبح جماحها . وإما أن يكون خارجا عن سلطان العقل غير قابل لسلطته عليه ، فيكون شراً عظيما ، لا مساعداً معينا ، يرتجى منه أى نفع . ولا وجه

للتمثيل بالجندى ، لأن الجندى النافع يعرف كيف يطيع قائده ، باعتباره أعلى نظراً ، وأوسع منه علما ، والهوى النفسى لا يعرف كيف يطيع ، كما أنه لا يعرف كيف يحكم ، والعقل لا يقبل مساعدا له ، خارجا عن سلطته يكون من شأنه التهور والاندفاع بغير روية ، ولا يقدر على رده ، وخضد شوكته إلا بمعارضته بهوى نفسى آخر ، كأن يعارض الغضب بالخوف ، والفتور بالغضب ، والخوف بالطمع ، والعقل أشرف من أن يشفى داء بداء ، وليس من شأن الفضائل أن تستعين بالرذائل ، وتستند عليها ، فان ذهبت إلى أن الغضب ينفع إذا كان ملطفا محددا ، فكأنك اعترفت بأن فى ماهيته نفعا ، ولكن كيف يكون ملطفا وهو خارج عن سلطة العقل ؟ ولو فرضنا إمكان تلطيفه ، فما هو النفع المرتجى منه ، سوى أن يقال شر أخف من شر ؟ وكل هوى نفسى يمكن تلطيفه لا يقال عنه إلا أنه شر ملطف ، وإن قلت إن للغضب ضرورة فى ساحة القتال ، قلت لك إن جاز أن تستند إليه الضرورة ، فضرورته أبعد ما تكون عن القتال ، لأنه لا يلزم للقتال حدة عمياء ، بل الذى يلزم له شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف . أليس الغضب هو الذى يجعل

المحاربين المتوحشين ، أولى القوة فى الجسم ، والصبر على النزال، أحط درجات فى ميدان الحرب . أمام الجيوش المنظمة المدربة، وأكثر إلقاء بأيديهم الى التهلكة ، وثقافة المصارع تقيه ، وغضبه يرديه ، فما ضرورة الغضب إذن لأمر ينال بالعقل والتدبير ؟ أترى أن القانص الذى يرصد قنيصته ليصيبها ، أو يعدو وراءها ليصيدها ، يكون به شىء من الغضب عليها يساعده على اقتناصها ؟ كلا . كذلك المقاتل لا يحتاج الى شىء من الغضب يساعده على القتال ، فالعقل وحده هو الذى يهديه ، والغضب بعيد عن الهدى ، وقد تبين مما تقدم أن لا منفعة من الغضب فى الحرب ، ولا منفعة منه فى السلم يستعان بها فى تأدية الواجب .

فان قيل لنا « ألا يغضب العاقل إذا رأى أباه قتيلا ، أو ابنه جريحا ، أو امرأته سبية » ؟ قلنا إن الدفاع عن الأهل والاقتصاص لهم واجب ، والواجب لا يقبل شيئا يزيد فى وجوبه ، وإذا بلغ الواجب حده ، فلا مزيد عليه ؟

وكل الذين قالوا بمنفعة الغضب ، اعتقدوا أن الغضب يشحذ الحمية ، لأداء مثل هذا الواجب ، والعاقل يعرف الواجب عليه ، وكيف يقوم بأدائه ، وإلا فانه إذا احتاج فى

القيام به الى محرك مثير ، أو محرض ، كانت معرفته به ناقصة ، وهذا مناف لصفة العاقل .

والأحكم ، والأقوم ، والأجدر ، بمن يقوم بأداء الواجب فى الدفاع عن أقاربه ، وأولاده ، وأصحابه ، وأهل وطنه ، أو الاقتصاص لهم ، أن يباشر ذلك ، بالتبصر ، والتروى ، وصحة الحكم ، لا بالتهور والتهيج والثوران ، وما شابه ذلك من لوازم الغضب . وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه ، وتأدية واجبه ، وعمى عليه وجه الصواب . فهو كبقية الأهواء النفسية التى كثيرا ما تكون بنفسها مانعة لقضاء بغيتها . ومع ذلك كله فاذا فرضنا أن الشر نتج منه خير مرة ، وأن الغضب كان منه نفع مرة ، فليس فيه برهان على اعتبار ذلك ، والاعتماد عليه ، فان من الأمراض ما تذهب به الحمى ، فهل يكون ذلك داعيا الى الرغبة فيها . ؟ وأهون بصحة تأتيك من طريق المرض .

وكل خير إذا عظم ، عظم نفعه ، وكل شر إذا عظم عظم ضرره ، فاذا كان فى الغضب خير زاد نفعه بزيادته ، والحقيقة على خلاف ذلك . فما نفعك قليله ، فكثيره أنفع ، وما أضرك قليله فكثيره أضر ، ويليق فى هذا المقام قولهم

« ما أسكر قليله فكثيره حرام »

ولو كان فى الغضب خير ، لكان من نصيب العقلاء من الرجال ، ولكننا نرى أن أكثر من يشتد بهم الغضب هم الأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، والمرضى ، لضعف نفوسهم ، وكل ضعيف النفس موصوف بالشراسة والملاحاة والمنافرة والمعاندة .

وقال أحد الفلاسفة : « لا يستطيع الرجل الفاضل أن يمتنع من الغضب على الرجل الشرير » وعلى هذا القول يتعين ، أنه كلما ازداد الانسان فضلا . ازداد غضبا ، وأى داع يدعو ذا الفضيلة الى الغضب على فاعل الشر ، إذا علم أن الدافع له إلى ارتكاب الشر هو الخطأ ، ومن البعيد أن يرتكب الانسان الشر لمجرد الشر حتى ولو كان بقصد سيء إذ لا بد من غاية يقصد بها فاعل الشر جلب منفعة لنفسه ، والساخط على مرتكب الخطأ ، أولى به أن يسخط على نفسه أولا ، لانه غير معصوم منه ، ولو انتصف الانسان من نفسه وحاسبها ، لوجد له أفعالا تستحق اللوم والتعزير ، والعادل من يحكم على نفسه ، كما يحكم على غيره . والأليق بالمحبة الانسانية أن يظهر المرء عطفا على المذنب فيرشده

الارشاد الأبوى إلى سواء السبيل ، لا أن يتعقبه بالسوء والأذى . والواجب أن نمحض ذا الشر النصيحة ليكون النفع عائداً منه على نفسه وعلى غيره ، لا أن نقابل شرا بشر مثله ، فلا نفع فى مقابلة الشر بالشر . وأى طبيب يغضب على مريضه ؟ وأحوج الناس الى البعد عن الغضب ، من كان بيده أمر العقوبة ، لأن العقوبة لا تقع موقعها ، إلا إذا كانت صادرة عن العقل ، لا عن الغضب ، ومصداق هذا ما قاله «سقراط» لخادمه وقد أذنب ذنباً «لولم أكن غضبان لضربتك فانظر إلى هذا الحكيم كيف انتظر حتى يذهب عنه غضبه ، ويثوب اليه حلمه ، حتى يصح له أن يوقع العقوبة !

وينبغى عند تقرير العقوبة على الذنب أو الخطأ ألا يكون القاضى بها غضبان منفعلا ، لأن الغضب مثل هذيان الحمى فى النفس . ولا يجوز لمن كانت هذه حالته أن يصلح غيره قبل أن يصلح نفسه . وكيف يغضب القاضى وهو طبيب الهيئة الاجتماعية ، وعنده من أنواع الدواء فى العقوبات ما يعالج به كل نفس على قدر ما يصلحها ، فمن لم يصلحه العتاب أصلحه التأنيب ، ومن لم يصلحه التعزير

أصلحه الحبس ، وهلم جرا ، حتى إذا رآه عضواً فاسدا لا ينجع فيه العلاج بتره من جسم المجتمع بالاعدام ، فما معنى استعمال الغضب هنا ، ووظيفة القاضى هى الشفقة على المجتمع ، من جهة إصلاحه ببتر هذا العضو منه ، والشفقة على العضو نفسه لاراحته مما هو فيه ، وهل غضب إنسان على العضو المصاب بالأكلة حين البتر ؟؟

ولنبحث الآن عن الغضب هل هو يحدث فى النفس اضطرارا أم اختياراً . وعندنا أنه لا يحدث إلا بارادة النفس ، لأن المرء لا يستفزه الغضب إذا شتمه آخر إلا بعد أن يتصور ماهية الشتم ، وما يترتب عليه من الاهانة ، وما يقتضيه من الانتقام ممن شتمه ، فينتفى بهذا كونه من الحركات الطبعية القسرية ، التى هى فوق إرادة الانسان ، لأن الحركات الطبعية مما لا يمكن العقل دفعه ولا التخلص منه ، مثال ذلك حمرة الخجل ، وصفرة الوجل ، والانتفاض من الماء البارد ، والاضطراب لسماع ما يحزن ، والفزع عند الخوف ، والدوار عند النظر إلى هاوية ، فكل هذه حركات قسرية ، فلو كان الغضب من نوعها ، لما أمكن العقل أن يلطف منه أو يتغلب عليه ، إذ الغضب ، كما قدمنا ،

لا يصدر إلا عن باعث من الفكر حصلت به الارادة ، ولا مانع حينئذ من استعمال العقل لصرفه أو تلطيفه .

والانسان الكامل لا يستفزه الغضب ، ولا ينفعل بأثر الحوادث فى نفسه ، ولا فى غيره ، فاذا قلت « إن الكمال يقتضى الفضيلة ، وصاحب الفضيلة يرضى بما يطابقها ، ويغضب لما يناقضها ، فصاحب الفضيلة يغضب للرذيلة » قلنا إن ذلك مدفوع بأن من أخص لوازم الفضيلة سعادة النفس ، ودوام ارتياحها ، فهى بعيدة عن الغضب ، بعدها عن الحزن ، واذا كان نصيب العاقل أن يغضب لكل شر يراه ، فكلما ازداد الشر ازداد غضبه ، فينتج من ذلك أن تكون حياة العاقل غضبا وحزنا كلها ، فيصبح من أتعس الناس حظا فى هذه الدنيا ، وذلك مناف لأخص لوازم الفضيلة .

وهل يخلو العاقل ، إذا خرج من بيته أن يصادف فى طريقه كثيراً من أنواع الرذائل التى يتصف بها البخيل ، والسفيه ، والأحمق ، والكذوب ، والمنافق ، والسارق ، وكل راض برذيلة متبجح بها ؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على غير الاستقباح والاستنكار ؟ فهو على ذلك لا يخلو من

الغضب طرفة عين . وكيف يكون حاله لو توجه فى صباحه الى دار القضاء فوجد المئات من المتقاضين ، هذا يشكو أباه ، وهذا يتهم أخاه ، وهذا ينازع أمه ، وذاك يشهد الزور ، وسواه يدعى الباطل ، والمحامى ينتصر بمهارته لدعواه ، والقاضى يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضا منغمسا فى مثلها ؟؟.

وكيف تكون حاله إذا شاهد فى المعاملات أن لا ربح لاحد الا بخسارة آخر ، ورأى المجدود بين الناس محسوداً مكروها ، والمنكود محتقراً مرذولا ، والقوى يدوس الضعيف ، والضعيف يدوس الاضعف ، وكل ميال الى ضرر أخيه ، يعتبر الهفوة منه ذنبا عظيما والزلة جرما كبيراً ، والخطأ عدوانا نظيعا ، والجميع فى ميدان حياتهم ، كالمتصارعين فى ميدان صراعهم ، بل لافرق بينهم وبين الوحوش الضارية ، بل هم احق منها بصفة التوحش ، فان كل نوع منها يعيش فيما بينه بسلام وآمان ، ولاسلام ولاأمان بين نوع الانسان ، ولقد رأينا الاسد الكاشر يتودد الى من يطعمه بكل علامات التودد والتحبب بينا نرى الانسان أول فاتك بمن أحسن اليه وكيف

تكون حال العاقل أيضاً وهو يرى الرذائل والجرائم قد ملأت الخافقين، حتى أصبحت الشرائع والقوانين لا تقوى على وقفها عند حد، ولا تطيق صد سيلها الجارف ولا تيارها الجارى، وليست هذه الرذائل مقصورة على قوم دون قوم، ولا فئة دون أخرى، بل كأن الجمعية البشرية صاح فيها صائح الشر فلبته من كل مكان، فصار الضيف لا يأمن مضيفه، ولا الصهر صهره، وأصبح الأخ لا يود أخاه، والابن يستطيل عمر أبيه، ويعده بالأيام للميراث، والزوج يفكر فى التخلص من زوجته، والزوجة تدبر المكايد لزوجها، والجار يخون جاره، والشريك يغش شريكه ثم أضف الى ذلك مطامع الشعوب بعضها فى بعض، وما يقع بينهم من الحروب، ونقض العهود، وخلف الوعود، والنهب والسلب، فهل تريد أن يغضب العاقل ويسترسل فى غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل والكبائر والجرائم والمعايب. لا جرم أنه يكون حينئذ على حالة لا يفى التعبير عنها بكلمة مجنون. أليس الأولى بنا أن ننسب ما الناس فيه إلى الخطأ والغلط؟ ولا يجدر بالعاقل أن يغضب منه. كما أنه لا يغضب على مماشيه إذا

عثر فى الظلام ، أو إذا نادى خادمه ولم يجبه لعارض أصابه فى سمعه ، كما لا يغضب على من نهكه المرض ، والتعب أو الشيخوخة ، فاذا كان لا يجدر به أن يغضب من هذه الأمراض الجسمانية كذلك لا يجدر به أن يغضب من هذه الأمراض النفسية التى تعمى عن الصواب ، وتوقع فى الخطأ ، ولينظر فى هذه الحالة إلى الجمعية البشرية نظرة شفقة ورحمة لا نظرة قسوة ونقمة .

فان قيل : « ليس فى طاقة الانسان أن يدفع الغضب بتاتا ويطهر نفسه منه تطهيراً ، وإن طبيعته البشرية لا تقوى عليه » : قلنا إنه لا يوجد فى الدنيا شىء من المصاعب والمشاق إلا وفى قدرة الانسان أن يتغلب عليه بطول الرياضة ، والممارسة ، ودوام التثقيف او التهذيب ، فيلين له كل صلب ، ويسهل لديه كل صعب ، وليس من هوى من الاهواء النفسية ، وان اشتد وتعاصى إلا وفى الطاقة اخضاعه على طول الزمن ، بالدأب على المعالجة ، والتدريب . وقوة الارادة ، وثبات العزيمة . لا يتعاصى عليهما امر ، ولا يعجزهما بلوغ غاية ، وقد وصل الناس بهما الى مالا يكاد يصدقه العقل . فمن الناس من حكم على نفسه أن

لا يضحك طول حياته ، فبقى عابسا ما عاش ، ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع ، ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة فوقف عليها الليالى وأياما ، ومنهم من يمد ذراعه فى الهواء فلا يثنيها زمنا طويلا ، ومنهم من نراه يمشى على الحبل الممدود فى الهواء كما يمشى على بسيط الأرض ، ومنهم من يحمل الأثقال التى تنوء بالعصبة أولى القوة ، ومنهم من يطوى البسيطة مشيا على الأقدام ، ومنهم من يغوص إلى قاع البحر فيبقى ممتنعا عن التنفس تحت اللجة زمنا يبحث عن الأصداف ، إلى غير ذلك من الأعمال التى يطول الاستشهاد بها فى قوة الارادة ، وثبات العزيمة ، مع طول الممارسة ، ودوام الرياضة ، مع أن الفائدة العائدة منها قليلة ضئيلة لا تذكر فى جانب ما تحمله صاحبها من المشقة فى مزاولتها ، فكيف لا يمكن الانسان بعد ذلك ، أن يستعمل قوته هذه فى التغلب على الغضب فيدفعه ويذلله ؟ لا ريب أن من وراء التغلب عليه مالا يحصى من الفوائد العظيمة ، التى منها راحة الفؤاد ، وسكون البال ، وصفاء الخاطر وسعادة النفس .

وليس فى الأمراض النفسية ، ما يستعصى علاجه على

طول الزمن ، فان القدرة الآلهيـــة أودعت النفس البشرية ، استعداداً كامنا لقبول الفضائل ، وبقوة هـــذا الاستعداد ، يمكن الانسان أن يصلح ما اعوج من أخلاقه ، والتوى من طباعه ، إذا عقد العزيمة ، وراض نفسه على مغالبة الرذيلة ، مع الدأب والمواظبة ، حتى تصبح له عادة وملكة ، لا يحس معها تعبا أو نصبا ، ويهون عليـــه بذلك كل صعب .

ولا يظنن ظان أن طريق الفضيلة وعر المسالك ، بل هو فى الحقيقة سهل على من يسهله لنفســـه ، وليس على الانسان إلا أن يسير فيه دائبا ، مواظبا ، فيوشك أن يصل إلى غايته ، وكيف يترك الانسان نفسه للتعود والتمرن على الرذائل ، وهى كلها أذى واضطراب ، ويهجر المرانة على الفضائل ، وكلها ارتياح وصفاء ، فيبيع راحة الحلم بكدر الغضب ، ولطف الرحمة بعنف القسوة ، ويبيت ليله يتململ على شوك الرذائل ، والعاقية وخيمة ، والمنقلب سيء ، وفى قدرته أن يبيت ناعم البال ، هادىء النفس ، لا يخشى ما يجلبه الغضب من كدر العيش ، ونكد الحياة ، فكم أودت كلمة الغضب بقائلها ، وفتكت بصاحبها !

إلى هنا ينتهى بنا القول فى شرح داء الغضب ، ولنأخذ الآن فى ذكر علاجه ودوائه فنقول : ينقسم علاج الغضب الى قسمين : علاج يمنع من تولد الغضب ، وعلاج يذهب بحدوثه بعد تولده .

ولا يخفى أن الناس فى تركيب أمزجتهم يختلفون سرعة وبطئا فى تولد الغضب ، إلا أن هذا ليس بشىء فى جانب ما يعتورهم من الأسباب الطارئة التى تزيد فى تولد غضبهم كالمرض ، وضعف البنية ، والانهماك فى العمل ، ومداومة السهر ، واشتغال البال بالمطامع والمطالب ، الى غير ذلك مما يهيء التنازع فى الجسم والنفس ، ويكون كالبذور للغضب ، ولكن السبب الأقوى هو تعوّده ، فاذا تعود الانسان الغضب أصبحت العادة مساعدة على نمو بذوره .

أما الاستعداد الطبعى فى سرعة الغضب ، فلا سبيل إلى محوه بالكلية ، وأما الأسباب الطارئة فانها تعالج أولا باصلاح مافسد من الجسم كيلا يتولد منه كدر النفس ، ثم تأخذ فى دفعها واحدة إثر أخرى ، فمنها تأثر النفس من شعورها بالاهانة ، ويجب لدفع هذا ألا يعجل الانسان

فى الحكم على شىء ، ولا يأخذ بظواهر الأمور ، لأول وهلة ، لأنه ربما وجد فى طياتها ما يغير منها ، وتكون الحقيقة على خلاف ما تصور فى بادىء الأمر . ثم يجب على الانسان أن يتجنب على قدر طاقته ، ما هو قائم فى كل نفس من تسرعها فى تصديق ما يكدرها قبل التمكن من الحكم الصحيح ، وقد نرى نفوسا كثيرة تجاوزت الحد حتى صار سوء الظن عادة لها وديدنا ، وكم غضب الانسان من صاحبه لابتسامة ، أو لحظة ، أو لفتة ، أو إشارة ، يؤولها سوء ظنه تأويلا سيئا ، مع أن الواجب عليه أن يحملها أولا على المحمل الحسن ، وأن يقف غضبه ، حتى تتبين له الوجهة المثلى . لأن الانتقام إذا تأخر يمكن استدراكه ، ولكنه إذا وقع تعذر تداركه . يحكى أن أحد اليونانيين تآمر على ملك ظالم ، فاستكشف المؤامرة أعوان الملك وأخذوا فى تعذيب الرجل ليدل على شركائه ، فشرع يسمى للملك واحدا بعد واحد من خاصة الملك وبطانته ، والملك يغضب ، فيأمر بقتل كل واحد ممن سماهم ، وما زال الرجل يسمى ، والملك يثور به الغضب ، فيأمر بالقتل ، حتى أتى على جميع المخلصين له ، ثم سأله « هل بقى أحد ؟

فقال له الرجل لم يبق إلا أنت وحدك ، لأنى لم أترك لك شخصا أمينا تعز عليه حياتك » فكانت سرعة الحكم فى حدة الغضب ، معينة للرجل على الملك حتى جعله يفنى بيده جميع من يثق بهم ، وبقى من بعدهم وحيدا بغير معين ، ولكن انظر إلى ما فعله الاسكندر الأكبر من التروى والتأنى فى الحكم ، فقد كتبت اليه والدته تنصح له بالتوقى والتحرز من طبيبه ، وأن يمتنع عن الدواء الذى يقدمه له إذ قد دس فيه السم . فلما جاء الطبيب بالدواء تناوله منه فشربه بيد وناوله كتاب والدته باليد الأخرى ، ولم يفعل ذلك إلا بعد التروى والتثبت من أن طبيبه الذى وضع ثقته فيه ، لا يمكن أن يخونه .

ومثل ذلك أيضا ما يروى عن أحد الملوك الفاتحين أنهم جاؤا اليه بعد الفتح بصندوق يحتوى أوراقا يتخاطب بها أعداؤه ، مع رجاله ، فأمر باحراقها ، من غير أن يطلع عليها ، ولم يجعل نشرها سببا للغضب عليهم والانتقام منهم .

فينبغى للانسان ألا يتسرع فى تصديق كل ما ينقل اليه قبل التثبت منه ، والتغابى فى كثير من الأمور خير

من إعلانه خيانة الناس له :

ليس الغبى بسيد فى قومه
لكنّ سيد قومه المتغابى

وليبعد ، ما استطاع ، بنفسه عن سوء الظن والتوهم ، فاذا رأى أن صاحبه مثلا قابله بتحية لا تليق به ، أو أن وجه صديقه لم يكن باشا عند لقائه ، أو أن جليسه قطع عليه الحديث ، أو أن خليله لم يدعه الى وليمة ، أو أنه أعرض عنه عند مقابلة ، فليبادر الى التماس العذر له ، لا الى سرعة الغضب منه ، لاحتمال أن يكون صاحب التحية مشغولا بأمر يهمه ، والمقطب مهموما بحادث الم به ، وقاطع الحديث خشى من فوات المناسبة لغرض له ، وصاحب الوليمة كان عذره النسيان ، والمعرض عند المقابلة كان مشتغل النظر بأمر آخر ، الى غير ذلك من الاسباب التى كثيراً ما كان إهمال التبصر فيها ، والتسرع الى سوء الظن سببا الى وقوع العداوة والبغضاء بين الأصدقاء والخلطاء ، ومدعاة الى تعود الغضب والاستمرار عليه ، أضف الى ذلك كثيرا من الأمور التفهة الواهية التى يغضب منها الانسان من غير حق ولا تمييز ، مثل أن يغضب من بطء

الخادم فى حركته، أو من خلل فى نظام مائدته، أو فراشه، أو وضع شىء من أشيائه فى غير موضعه المعين له .

فالغضب لهذه الأسباب الواهية ، ضرب من الجنون منشؤه ضعف النفس وارتخاؤها من طول التنعم والترف، حتى صارت تتأثر باقل مؤثر ، كما حكى عن ذلك المتنعم الذى نظر الى حاطب يجهد نفسه فى تقطيع الخشب ، فأثر فيه ذلك المنظر لضعف قواه . فكان الحـــاطب يقطع وصاحبنا يعرق له ، أو كمثل الذى نهك الترف جسمه ، الى درجة جعلته يتململ على فراشه من مس الازهار المنثورة تحت ملاءته . وليس الزهر هو الذى آلمه بخشونته وانما آلمه رخاوة جسمه المسموم بالترف والتنعم . وكم من واحد منهم أخرجه الغضب عن طوره لعطسة عطسها الخادم ، أو سعال اعتراه فى حضرته ، أو من تقصير فى طرد ذبابة ، أو من وقوع مفتاح على الأرض أزعجه صوته ، ومنهم من تصدر عنه الأفعال الكثيرة التى يجور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، والأقرب فالأقرب من معامليه ، حتى ينتهى الى خدمه وأهل بيته لسبب من تلك الاسباب الواهية . فيكون عليهم سوط عذاب ، لا يقبلهم

عثرة ، ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا أبرياء من الذنوب ، بل يتجرم عليهم ، ويهيج فيهم ، فيبسط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون عليه ، ولا يتجاسرون على رده ، بل يذعنون ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لعاديته ، وتسكينا لغضبه ، وهو مع ذلك يستمر على طريقته ، لا يكف يدا ولا لسانا . وقد شاهدنا منهم من يتجاوز به الغضب على نوع الانسان الى البهائم التى لا تعقل ، والى الأوانى التى لا تحس ، فربما قام الى الحمار ، أو الى الفرس ، فضربهما ولكزهما ، وربما كسر الآنية ، أو عض القفل ، إذا تعسر عليه ، وربما كسر القلم اذا تعلقت به شعرة من الدواة ، اجتهد فى ازالتها فلم تزل .

كان أحد ملوك اليونان يغضب على البحر إذا اهتاج واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه ، فيقسم ليطرحن الجبال فيه ، حتى يصير ارضا ، ويقف على الشاطىء يهدد الأمواج ويزجرها ، حتى تنتفخ أوداجه ، ويحتقن وجهه ، فاذا علمنا أن الترف والتنعم هما من أكبر الاسباب المولدة للغضب ، كان أول علاج لدفعه تربية الجسم والنفس بالرياضة والاخشيشان.

ويغضب الانسان على من يكون من شأنه أن تصدر عنه إهانة ، وعلى ما ليس من شأنه أن تصدر عنه إهانة قط لخلوه من الارادة ، مثال ذلك أن يغضب من زر من أزرار قميصه استعصى عليه فيمزق القميص ، ويغضب من حذائه لضيقه فيرمى به الى الحائط ، أفليس من الجنون أن يغضب الانسان على أشياء لا تدرك ولا تحس ولا يؤثر فيها الانتقام ؟

ولعل قائلا يقول : « إن الانسان لا يغضب على هذه الأشياء فى نفسها ولكن يغضب على صناعها » فنقول إن غضبه يسبق هذا التمييز فهو يعقل ما يفعله بها ، وليس فى فكره أدنى تصور لمن صنعها . ولو فرضنا أن كان غضبه على صانعها فما يدريه لعل هؤلاء الصناع لهم أعذار مقبولة كعجز أحدهم مثلا عن إتقان صنعه ، وما معنى الغضب عليه ، وهو لم يقصد أن يغضب أحداً البتة . ومع ذلك فلو استحق هؤلاء الصناع غضب الناس عليهم ، فلا يليق بالعاقل أن يغضب على الأشياء المصنوعة كما أنه لا يغضب على الحيوانات التى لا تعقل وهى لا تفعل شيئا بنية الاهانة ، وإنما تفعل ما تفعله للدفاع عنها .

فاذا كان الغضب لا يجوز على الجماد ، ولا على الحيوان ، فهو لا يجوز أيضا على الأطفال والصبيان ، ولا على الذين انحطت قواهم العقلية ، نصاروا فى منزلة الأطفال وان شابت نواصيهم ، وتقوست ظهورهم ، والقاضى العادل لا يحكم فى هذه الحال بعقاب لفقد التمييز

ومن الأفعال مايكون خاليا من إرادة الاضرار ، كالجمادات والحيوانات ، ومنهاماهوخال من إرادة الاضرار ، كالتقويم والتأديب . ومن هـــذا القسم القضاة العدول ، والآباء ، والأمهات ، والمعلمون ، والمؤدبون ، فان مايصدر عنهم من العقاب فيه من المنفعة لك . مثل منفعتك بدواء الطبيب ، وإن كان مرا ، والعمل بالحمية وإن كانت مكروهة للوصول الى الشفـاء من المرض ، فيجب على العاقل أن يكون نظره متجها دائما الى المقاصد والنتائج من الأقوال والأفعال ، ولو أنصفنـا لوجدنا أن ما ينالنـا من عقوبة القضاة والآباء ، والأمهات ، والمؤدبين ، هو أدنى ، بدرجات من مقدار الذنوب التى ارتكبناها ، غير أن اعتقادنا فى أنفسنا البراءة من كل ذنب ، حتى نكاد نقول بعصمتنـا ، هو الذى يكبر فى أعيننا حد العقاب ، ولـكن اذا أيقنا أنه

ما من أحد يخلو مما يلام عليه ، فى السر والعلانية ، هان عليه الأمر ، فلم يغضب لجزاء ، أو عقاب نزل به ، وكل غضب من هذا القبيل ، فانه ذنب آخر يضاف الى ما ارتكبناه ، اسمه الصلف والكبرياء .

أين الرجل الذى يقدر أن يقول للقانون ليس لك على سلطان لطهارة ذيلى فى السر والعلن ! ان كل انسان فى هذا العالم لا بد أنه فعل شرا ما ، أو همّ به ، او فكر فى فعله ، أو تمناه ، أو ساعد غيره عليه ، فاذا تبجح متبجح بأنه لم يفعل شرا فى دنيـــاه ، فتكون حقيقة دعواه عدم نجاحه فى ايقاع الشر . وعلى هذا إذا أنصف الانسان من نفسه ، وعلم انه مصدر للخطأ والذنوب ، قابل ما يقع عليه من العقوبة بالرضا ، ولم يأنف من توجيه اللوم اليه .

ولنرجع الى ما كنا فيه ، فاذا قيل لك إن فلاناً تكلم فيك بسوء ، فلا تعجل فى الحكم ، بل ابحث فى الأمر ، بحث الرجل المنصف . فلعلك فعلت معه ما أوجبه للكلام فيك ، ثم ارجع الى نفسك تجدها قد فعلت بالناس مافعله ذلك المتكلم بك ، وقلت فيهم مثل ما قاله فيـــك أو أكثر منه ، واحمل ما أتاه معك على التشبه بك ، والمساواة

لك. لا على التعدى عليك ، أو تحمله على مناسبات الحديث ، وارسال النكتة ، ولطالما اندفع المحدث الى سوء القول ، التماسا للنكتة لاسواها ، فجاءت بأوخم العواقب ، ومما يحكى فى هذا الباب ، أن أحد ملوك اليونان القدماء كان أعور ، وكان أصله طاهيا ، فانحرف ذات يوم عن شاعره وجفاه ، فقال أحد الأصدقاء للشاعر : أنا على يقين أنك لو ذهبت اليه والتمست منه العفو لعفا عنك . فقال أخاف أن يأكلنى « السيكلوب » نيّا . (والسيكلوب حيوان خرافى بعين واحدة) فجمع فى هـذه الكلمة بين التعريض بالعور والطباخة ، وسمع الملك بذلك فأمر بقتله ، وما جره إلى ما قال الا ارسال النكتة وحده .

ثم احمل ما يقال فيك أيضاً على الجهل بك من قائله ، ولنفرض أنه قال ماقاله متعمداً ، ألا يجوز أن تكون مصلحته متوقفة على تلك الكلمة ؟ وأن نجاحه فى حاجته لا ينال الا بها - ولكن أين نجد هذا الرجل العاقل المنصف من نفسه ؟ أنجده فى الرجل الشهوانى الذى يستهوى امرأة غيره ويخدعها مع اجتهاده فى المحافظة على زوجته والغيرة عليها ؟ أنجده فى الرجل الخائن الذى يطلب

مع خيانته الوفاء من الناس ؟ أنجده فى الرجل البخيل الذى يعير البخلاء ؟ أنجده فى الرجل الحانث فى إيمانه الذى يشمئز من حنث غيره ؟ أنجده فى الرجل المطبوع على المكر والكيد وهو يشكو مكائد الناس ؟ لقد تعودنا أن ننشر عيوب الناس على أعين الناس ، ونطوى عيوبنا وراء ظهورنا فترى الوالد يعيب على ولده الانهماك فى الملاذ والشهوات ، مع كونه أقل انهماكا من أبيه ، ونرى الظالم الجائر يغضب على غيره اذا تعدى على أحد ، وترى قاطع الطريق يغضب على السارق ، ولكنك إذا أمعنت النظر وجدتهم لا يغضبون للأفعال وإنما يغضبون على الأشخاص .

وعلى هذا فاذا نظرنا نظرة الانصاف فى نفوسنا ، كنا أكثر سماحا وأعظم غفرانا للغير ، لأننا ارتكبنا من مثل الأفعال التى نغضب لها الشىء الكثير .

ومن علاج الغضب أن تنصح الغضبان ليقف وقفة فى غضبه ، فاذا وقفها وكان ممن يفتكر ويتدبر ، خف غضبه ثم زال ، ولا تأملن أن تنتزعه من يد الغضب دفعة واحدة ، فذلك مالا سبيل إليه ، وإنما يزول الغضب شيئا

فشيئا حتى يذهب أثره .

ان الأمور المسيئة المهينة لاتخلو من أن تكون منقولة أو مسموعة ، أو مرئية . أما المنقولة فلا ينبغى التسرع فى تصديقها . فان كثيراً من الناس يكذبون أما بقصد الغش والخديعة ، وأما أن يكونوا قد انخدعوا بالكذب فنقلوه ، فترى أحدهم يرمى الآخر بكراهته لك ، تذرعا الى مودتك ، وطلبا للمنزلة عندك ، فهو ينقل اليك السوء ليظهر من خلاله مكانتك عنده وشفقته عليك ، وترى بعضهم تدفعه دوافع الحسد والمنافسة ، ليفصم ، بنقل السوء ، عرا المودة بين بعض المتحابين وبعض ، يفعل ذلك لمجرد التسلية والتمتع بمشاهدة وقوع الشقاق بين الناس وهو بعيد عن خطر الوقوع فيه .

والعجب للانسان يكون قاضيا بين المتخاصمين ، فلا يحكم بينهم ولو فى مسألة واهية ، إلا بعد التحقيق والتدقيق ، وشهادة الشهود ، ومناقضة الخصوم ، حتى تتجلى له الحقيقة واضحة ، فيحكم حكمه ؛ ولكن اذا سمع كلمة السوء ، منقولة عن صديقه ، بادر فى الحال الى تصديقها من غير استشهاد عليها ، أو سؤال صديقه ، وما أسرع ما

تأخذه حدة الغضب ، فيتجهم لصاحبه ، وينزوى عنه ، وتحل العداوة محل الصداقة ، ويحكم عليه بارتكاب السوء ، والمحكوم عليه لا يدرى ماذنبه ، ولا يعلم من الذى اتهمه ، ولقد يبالغ المرء فى التصديق والحكم كأنه قد شاهد وخبر ، وحقق وتأكد ، والناقل هنا يكون أسرع الناس الى انكار مانقله اليك ، اذا دعى الى اثباته ، وربما أوصاك وهو ينقل اليك ألا تذكر اسمه ، واشترط عليك أنك اذا ذكرت اسمه أنكر ما قاله ، وأنه لا يخبرك بشئ بعد ذلك ، فهو يدفعك الى ميدان العداوة من جهة ، ويتحاماه ، من جهة أخرى ، ومن كانت هذه حاله فى نقل القول متسترا ، فهو المخبر المنكر فى آن واحد ، فهل ترى بعد هذا شيئاً أفظع من أن تظلم صاحبك بتصديق خبر مكذوب ، نقله الناقل اليك فى الخفاء ، فأسرعت الى مقابلة صاحبك على أعين الناس بالعداء والجفاء ؟

وأما المسموعة أو المرئية ، فيجب علينا فيها أن نكون على علم بطباع من صدرت عنه ، وعلى بينة من نيته ، فان كان المسىء اليك صبيا وجب عليك أن تعذره لصغر سنه ، فانه فى هذه الحاله لا يدرك ماصدر عنه من

الشر إدراكا صحيحا . وان كان والداً لك فاما أن تجعل ما له عليك من الحقوق والمنن المتوالية مكفرا عن تلك الاساءة وإما أن تعتبر ما تحسبه إساءة منه ، نعمة جديدة عليك فى تقويم أخلاقك ، تضاف الى نعمه السابقة . وان كان المسىء امرأة فالنساء غرائر ، وإن كان المسىء مضطرا الى ذلك لسبب من الأسبـــاب ، فليس من الانصاف أن تغضب على المضطر ، ويجوز أن تكون أنت الذى اضطررته بما ابتدرته به من الاساءة وليس فى المكافأة من إساءة . فان كان المسىء ملكا قادرا فاخضع لحكمه إن كان عادلا ، وامتثل لقدرته وسلطانه إن كان جائراً ، فان كان المسىء من غير ذوى الادراك ، حيوانا كان أو غيره ، فشعورك بالاساءة منه نزول الى درجته ، وسقوط الى منزلته ، فان كانت الاساءة من مرض ملم ، أو خطب مفاجىء ، فاحتماله بعزم الرجال يخفف منه ، وإن كانت الاساءة بقضاء الله وقدره ، فلا عتب على القضـاء ولا غضب على القـدر . وما للعاقل الا الرضا باحكام الله فى سرائه وضرائه .

فان كان من ظننت صدور الاساءة عنه من أهل الفضيلة ، فلا تركن الى الظن « إن بعض الظن إثم » وان

كان من أهل النقيصة فلا تعجب ولا تغضب من صدور الاساءة عنه .

فان كان المسيء مسخّراً مستأجراً ، فسوف ينكفىء - بعد إتمام إساءته - نادماً ، وكفى بالندم عقاباً .

فان قال قائل إن فى الغضب ارتياحا ، وفى مقابلة الشر بالشر لذة ، أنكرنا عليه ذلك كل الانكار ، وقلنا له إذا كان فى مقابلة الخير بالخير لذة ، وكان وجه المعروف والجميل جميلا ، فان مقابلة الشر بالشر ، على النقيض من ذلك ، والكريم من يخجل من الانهزام فى ميدان الخير ، كما يخجل من الانتصار فى ميدان الشر .

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه ، وإن كان يتناول معنى العدالة ، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضىّ الزمن فى التربص له ، ومهما خف الانتقام ، ولطف ، فانه لا يفترق عن الاساءة والاضرار إلا بالتماس العذر لفاعله .

لطم أحد الناس حكيما من الحكماء فى طريقه ، فلما رجع يعتذر إليه عن اللطمة ، قال له الحكيم : « فيم الاعتذار ! ما أذكر أنك لطمتنى » فرأى بحكمته أن تناسى الاساءة والتغافل عنها ، أجمل فى النفس من ذكرها ، وأفضل من

الانتقام لها ، وأرقى من العفو عنها ، ولقائل أن يقول : « أما وجد الحكيم حرجا ومضضا فى نفسه من وقوع تلك اللطمة عليه » ؟. فنقول كلا ! بل وجد ارتياحا وانشراحا ، لأن النفس العظيمة يزدهيها أن تحتقر الاساءة ومن صدرت عنه، وأشفى من الانتقام وأعظم منه أن يحس المسىء إليك أنه ليس أهلا لأن يستفزك الغضب عليه .

وكم من منتقم لأمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة ، وأضرار بليغة . فلنترفع ولنتكرم ولنفعل مايفعله ملك الضوارى إذ رنّ فى أذنه عواء الأكلب الغضف فلم تطرف نحوها عينه ولم يلتفت إليها بعنقه .

فان قلت : « ان الانتقام يوجب الاحترام والتوقير » قلنا إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء ، فلا حاجة بك الى إضافة الغضب اليه ، ولا ضرورة لأن ترى فيه ارتياحا أو استشفاء ، ولكن حسبك أن تعتبره فعلا نافعا .

ويجب على العاقل أن يحتمل الاساءة من ذوى السلطان بالصبر ، لا بل بالقبول والارتياح ، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولها ، وشدة تأثيرها ، زادوها أضعافا .

وأكبر عيوب الذين أسكرهم الدهر بالمناصب والمراتب، أنهم يضيفون الى إساءتهم الحقد على من أساءوا اليه، على أنه لا محل للحقد بعد الاساءة، وقد قيل لرجل شاخ وهرم فى خدمة الملوك: «كيف بلغت هذه السن وهى شاذة نادرة فى حاشية الملوك»؟ قال بلغتها بقبول الاساءة والشكر عليها! وقد يوجد الانسان فى أحوال يكون اظهار التأثر فيها من الاساءة أشد خطرا منها. يحكى عن أحد الظالمين من قياصرة الرومان أنه امتعض من تكلف أحد الشبان من أولاد الكبراء لزيه وشكله، وشارته وزينته، فامر بسجنه، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال له القيصر قد قتلته (وأوعز فى الحال بقتله) ثم أراد أن يخفف عن الوالد من مصيبته، فدعاه إلى شرف الطعام على مائدته فى مساء ذلك اليوم، فحضر الرجل، وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب، فناوله القيصر بيده كأساً من الخمر، فشربها، وكأنما يناوله دم ابنه، ثم أمر القيصر بتضميخه وتعطيره وتتويجه بالزهور كما هى العادة فى مجالس أنسهم، ووكل به من يراقبه، فتقبل الوالد كل ذلك بالطلاقة والبشاشة، ثم أخذ مجلسه من مائدة القيصر، مع تسعة

وتسعين من الكبراء والعظماء ، وظل فى مساء اليوم الذى قتل فيه ابنه يتفانى معهم فى لهوهم ولعبهم ، مع ضعفه وشيخوخته كأنما جاءته البشرى بمولود .

وكأنى بك تقول ، ما سبب هذه المذلة والمسكنة ؟ فاقول لك كان للرجل ابن ثان يريد أن يحفظ حياته ، من هذه اليد المطلقة فى الظلم ، وما كان الرجل ليتأخر عن مصادمة ذلك الجبار ، لو كان ما يخشاه متعلقا بشخصه وحده ، ولكن المحبة الأبوية تغلبت على كل تأثر وانفعال ، ولولا كتمانه ما يغلى فى صدره من الحزن ، واظهاره ما تكلفه فى حضرة الملك من البشاشة والمجاراة فى اللهو واللعب ، لكان الابن الثانى لحق بالابن الأول . والعقل يرشدنا الى أن نمتنع عن الغضب على من هو ندّ لنا ، وعلى من هو فوقنا فى القدر ، وعلى من هو دوننا فى الدرجة ، فان الانتصار فى مصارعة الند أمر مشكوك فيه ، ومصارعتك من هو فوقك جنون ، ومصارعتك من هو دونك سفالة ودناءة .

ومن وسائل تسكين النفس عند الغضب ، أن تتذكر للمغضوب عليه يداً فى المعروف أسداها اليك ، فيكون

ما أتى به من الخير فيما مضى غافرا لما نعلمه من الشر فيما حضر ، ولا تنس ما يعقب العفو والحلم ، من حسن السمعة وجميل الشهرة ، وكم من صديق حميم اشتريته بالعفو والحلم ، ولا شيء أبدع من استخراج الصداقة من العداوة ، وأبلغ القول فى هذا الباب ما جاء فى الكتاب الكريم « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وقوله أيضا « ويدرأون بالحسنة السيئة » .

ومن السفاهة والحمق ، أن يتناول غضبك الأبناء لذنوب الآباء والأجداد ، فتحمل عليهم حملة الظلم ، لحقدك على أسلافهم ، وقد قال الله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ومن وسائل تسكين النفس أيضا ، أن تتذكر وقوفك بين يدى من لا يرحمك ، ولا يعفو عنك ، فان ارضاك ما تراه من القسوة عليك ، فلك أن تعامل بها من وقف بين يديك ، وكم من مرة رفضت فيها العفو عن سواك ، فأنزلك الدهر الى طلب العفو منه ، ورماك الزمن تحت أقدام من كانوا يلتمسونه منك بالأمس ، وإذا قيل لك إن فلانا قلب النحاس ذهبا ، والحصا درا ، طال إعجابك به ،

وإعظامك له ، وعددت ماصنعه من الخوارق . ولكن من يقلب العداوة صداقة، والبغض محبة ، والحرب سلما ، والمكافحة مصافحة ، أولى بالاعجاب ، وأحق بالاعظام ، ومن وسائل تسكين النفس ، أن تتصور ما تكون عليه هيئة الغضبان من تشويه الوجه ، واضطراب الأعضاء فى ظاهر الجسم ، فما بالك بما تكون عليه النفس فى باطنه ، ومن وصايا بعض الحكماء إذا غضبت فأسرع إلى النظر فى المرآة . ومن الجنون أن يغضب الانسان لدرهم ، فيصاب من الغضب بمرض لا يكفى ماله كله لعلاجه . وحدة الغضب يقع شرها على الغضبان ، أكثر مما يقع على المغضوب عليه ، فيضرب الغضبان نفسه ، ويمزق ثيابه ، وينزع شعره ، ويعض يديه ، ويلطم وجهه ، وقد رأينا أحد الحكام فى مصر كان يعض من يغضب عليه ، فكان لكبر سنه يفقد فى كل عضة سناً من أسنانه حتى إذا فنيت أسنانه الطبعية ووضع مكانها أسنانا صناعية ، لم تتركه عادة العض عند الغضب ، فكان كلما غضب على إنسان ترك صف أسنانه فيه ، فيقوم من دسته مهرولا ، وراء الرجل وهو يفر من أمامه ، وينـاديه بفيه المشوه « ويلك !

أسنانى ! أسنانى ! حتى يردها اليه بعض الحجاب ، بعد أن صار ضحكة الحاضرين .

واعلم أن الأهواء النفسية ، تدخل فى النفس تدريجيا إلا الغضب ، فانه يدخلها دفعة واحدة ، فيتغلب على بقية الأهواء . ويتسلط عليها ، ويبقى وحده قائما فيها يتصرف كما يريد ، فهو لذلك أعظمها شرا ، وأكثرها ضررا ، وكم غضب العاشق — والعشق أكبر أهواء النفس — فقتل معشوقه ، وقد يغضب البخيل - والبخل من أثبت الأهواء فى النفس - فبسط يده فى ماله ، وبعثر ثروته ، توسلا الى الانتقام ، وتوصلا الى التشفى ، وقد يغضب المتفانى فى حب المعالى والمراتب فيهدم فى لحظة واحدة مابناه من المجد فى أعوام . وهلم جرا .

وينبغى لعلاج الغضب باستئصاله ، أو وضع حد لاندفاع النفس فيه ، أن يكون مناسبا لحالته . فتارة نقاومه بالكشف والصراحة إذا كانت حالته خفيفة ، تساعده على ذلك . وأحيانا باتخاذ طرق المداراة والاحتيال لدفعه إذا كانت المقاومة والمعارضة مما تزيد فى شدته ، وعلى كل حال لابد أن ننظر أولا الى درجة نمره . وهل يجوز

مقاومته أو التسليم له فى أول هجماته وشدة بأسه ، خشية أن تزيد المقاومة فى اندفاعه ، كما ينـــدفع السيل فيقتلع الحواجز ؟ والمعول فى ذلك كله على معرفة أخلاق الغضبان . فمن الناس من يهدأ غضبه ، وتزول عنه سورته بمجرد الخضوع والامتثال لأمره ، ومنهم من يتضاعف غضبه ويشتد على مقدار التضرع والترجى ، ومنهم من يسكن غضبه بالارهاب والتخويف ، ومقابلة الانفعال بمثله ، ومنهم من يسكن غضبه إذا أقر المغضوب عليه بذنبه وأنه لا يعود اليه ، ومنهم من لا يسكن غضـــبه إلا بمرور الزمن . وهذه آخر درجات العلاج وأبطؤها . ولا يخفى أن سائر الرذائل يمكن وقفها عن سيرها مدة التأجيل فى العلاج إلا الغضب فانه كالعاصفة فى انطلاقها ، والصاعقة فى انقضاضها ، فلا يتمهل ولا ينتظر ، بل يولد قاهرا فى أشد قواه . وليس من خاصته أن يأتى النفس للاستيلاء عليهـا من طريق الاستدراج كبقية الرذائل ، ولكنه يسحبها سحبا ، فيقذف بها فى هاوية الشر ، ولو كانت النتيجة وقوع الضرر كله عليها . والغضبان يصرع نفسه ويصرع المغضوب عليه ، ويصرع ما يلاقيه فى طريقه

مما لا ارتباط له بالحادثة مطلقا . والرذائل تجر النفس الى الهلاك ، ولكن الغضب يقذفها ، وان لها لفترات ولكن لا فتور للغضب ولا هوادة. وينشأ بعض الرذائل من انحراف فى صحة النفس يدب فيها ، ويدرج ، فلا تشعر بتقدمها فيه ، والغضب حمى نازلة تصرعها مرة واحدة ، وبغض النظر عن درجات الاسباب المغضبة فى صغرها وكبرها ، فان الغضب يدفع بصاحبه الى أقصى درجات التهور من أوهى الاسباب ، كما يبلغها من أعظم الأسباب ثم هو لا يستثنى كبيراً ولا صغيراً ، ولا يسلم منه شخص بمفرده ، ولا أمة بمجموعها .

وقد وجدنا أمما وشعوبا تسلم من بعض الرذائل . فلا تكتنفها ، فمنها التى يمنعها فقرها من رذيلة الفضول فى العيش ، ومنها التى تحول طبيعة بداوتها دون البطالة والكسل ، ومنها التى لا تعرف الغش والخداع لسلامة أخلاقها الفطرية ، ولكنك لا تجد أمة سلمت من رذيلة الغضب وبوائقه ، فهو شديد الأثر عند العرب ، كما هو شديده عند العجم ، شديد فى المدنية ذات القوانين والشرائع ، كما هو شديد فى الجاهلية الجهلاء ، وقصارى القول أن

سلطة الرذائل النفسية تتناول الأفراد والجماعات ، فما سمعنا أن أمة بأسرها شغفت بهوى امرأة ، أو أنها ابتليت كلها بآفة البخل، إلى غير ذلك ، ولكنا طالما سمعنا ان الغضب استولى على أمة بأجمعها فساقها تحت رايته رجالا ونساء شيوخاً وغلمانا، عظماء وأدنياء، فجعلوا ينفرون سراعا إلى ميدان الغضب ، وتكفيهم الخطبة الواحدة ، والصرخة النافذة ، للهياج والثوران . ومن العجب فى هذا الشأن ، أن المثير للغضب ، والمشعل لنيران الثورة ، والنازل المتقدم ، لا يلبث أن يكون مسبوقا بعد أن كان سابقا ، ومقوداً بعد أن كان قائداً ، فتفز الأمة فزة واحدة ، وتلقى بنفسها بين النار والحديد ، فتحارب جارتها إن لم تحارب نفسها بنفسها ، وتخرب وطنا ببأسها .

ويجب لدفع الغضب عن النفس أن تبعد بها عما يجهزها لحلوله . فلا تزاول من مساعى الحياة ، ومطالب الدنيا ، مايزحمها ويكثر همها . ولا تقتحم بها مجاهل المطامع ، وفيافى الآمال والأمانى ، ولا تحملها مالا تطيقه ، فيتكدر صفوك ويضيق عطنك . فيجد الغضب وقودا لضرامه فى الصدر ، وقدحا لزنده فى القلب ، ومن كلمات الحكيم

« ابقراط » : إذا أردت أن تعيش هادىء البال هنىء العيش، فلا تزحم نفسك بكثرة المطالب ، وتعدد الأعمال خاصة كانت أو عامة ، ولا تقصد منها إلا ما كان مناسبا لقواك، حتى لا يثقل عليك حمله ».

ومن كان مقسّم الأوقات بين المطالب المتعـــددة، والمقاصد المختلفة ، استحال عليه أن يسلم من مصادمة الموانع والحواجز فى طريقه ، من الأشخاص والأشياء ، فيهيج منها غضبه ،ومن دخل سوقا كثير الزحام وهو يعدو ، فلا يسلم من التعثر بأذياله ، ومصادمة هذا،ومعارضة ذاك، والوقوع تارة ، والقيام أخرى ، وكذلك من يتصدى لمباشرة أمور جمة ، وأعمال متنوعة . يقف عليها حياته ، فانه يكون فى كل أوقاته عرضة للأحزان وهى بساط الغضب فى النفس ، ولشد ماتجد فى طريق أعمالك من يقابلك بضدّ ما تأمله ، ومن يقف سدا أمام مطلبك ، ومن يبادر إلى اختطاف الفائدة التى تنتظرها من مسعاك . ومن يدفعه الحسد فيسعى فى قلب المنفعة من أعمالك إلى المضرة ، وكثيراً ما يخيب المطلب الذى تثق بالنجاح فيه . والدهر لا يخدم إنساناً إلى درجة أن يتوج أغراضه التى

تعد بالألوف بتاج الفوز والنجاح ، بل تتعدد الخيبة على قدر تعدد المطالب ، فتشمئز نفسه حينئذ ، ويتكدر خاطره ، ويستعد للغضب من أوهى الأسباب ، فيغضب على الانسان ، والحيوان ، والجماد ، بل يغضب على القضاء وعلى نفسه أيضا . فهدوء البال وصفاء النفس متوقف على ان لا تنهك قواك ولا تحمل نفسك مالا تطيق . وانه ليسهل على المرء أن يحمل حملا ينقله من كتف الى كتف كلما أتعبه ثقله ، ولكنه إذا وضع الحمل الثقيل على كاهله فوق مقدار قوته لم يلبث ان ينوء به ويسقط تحته إعياء ، وكذلك شأن الاعمال الانسانية ، منها ما هو هين يقوى الانسان على القيام به ، ومنها ماهو ثقيل شديد يفوق طاقته ، إذا هم لم ينهض به ، وإذا نهض أنهد به . فعليك أن تختبر قوتك قبل الشروع فى الأعمال وتقابلها بقوة العوارض والموانع ، ولتكن أعمالك متوسطة لا تفوق طاقتك ، ولا تترك نفسك تحاول ما فوق قدرتها . فان الأسف الذى يعتريها من خيبة المسعى ينقلب غيظا وكمداً ، ويجعلها دائما مستعدة لحركة الغضب ،

واعلم أن عدوى الأمراض فى انتقالها إلى الاجسام ،

ليست باسرع من عدوى الأخلاق فى سريانها فى النفوس، فابذل جميع جهدك فى اختيار الصاحب، والمعاشر، والمقارن، فان الانسان جبل على التقاليد، والطبع سراق، «وكل قرين بالمقارن يقتدى». فالخليع يجر صاحبه الى الخلاعة، والأحمق يقود عشيره إلى الحماقة، والبخيل يسحب رفيقه الى البخل، والعدوى فى الرذائل مثلها فى الفضائل، فعليك بمعاشرة من كان دمث الأخلاق، سهل الطباع، لين العريكة، فتكتسب النفس منه من حيث لا تشعر، ولعمرك ما تفعل جودة الاقليم، واعتدال الجو، ونقاء الهواء فى نقاهة الجسم المريض، ما تفعله مخالطة ذوى الفضائل فى شفاء النفس المريضة. وأكبر فائدة فى معاشرة أصحاب الاخلاق الكريمة والسجايا السمحة، أنك لا تجد عندهم من الأسباب ما يهيج له غضبك، واجتنب ما أمكنك مخالطة من كان متكبراً فيحتقرك، ومن كان فى طبعه السخرية فيهزأ بك، ومن كان كثير الجدل فيخاصمك، ومن كان سفيها فيسبك، ومن كان سيء الظن فيشك فيك، فتكون معرضاً بينهم على الدوام لثوران غضبك، بخلاف الخلطاء من أهل الفضائل فانهم لا يصدر عنهم ما يحرك الغضب، بل يبادرون إلى

تسكينه إذا ثارت بك ثائرته .

ويجب على من كان سريع الغضب أن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم المجردة ، والدروس العقلية العويصة ، فلا يذهب فيها إلى درجة تشق على القريحة ، وتكد النفس فتتعبها ، وتهد قوتها ، فتضعف وتعتل ، وتصبح قابلة لسرعة التأثر ، ويعين ضعفها على تسلط الغضب عليها . وكما أن الجسم إذا جهدته بالحمل الثقيل والعمل الشاق ، ولم تجعل له فترة لراحته وتجديد قوته ، حل به الضعف ، واستعد لنزول الأمراض به ، فكذلك النفس إذا لم ترفق بها وتروحها بما ينعشها ويبعث من نشاطها كلّت وملّت . فاذا أحسست من نفسك الضجر والسأم من مزاولة العلم والدرس فعليك أن تروحها بمطالعة رقيق الشعر وأنيق النثر ، ونكت التاريخ ، وملح الأدب ، وجل بها جولة فى روائع الصنائع ، ومحاسن النفوس ، وقد كان « فيثاغورس » شيخ الفلاسفة إذا أحس من نفسه الضجر والاضطراب فى اشتغالها بالعلوم عمد إلى تسكينها وتهدئتها بسماع الالحان الموسيقية ، والانغام المطربة .

ثم اجتنبت ما استطعت أن تزج بنفسك فى باب التشاحن

والتشاجر ، والتنازع والتخاصم ، والتشاكى والتقاضى ، فتصبح موزع النفس ، دائم الهم ، وما رأيت رجلا أكثر غماً ، وأبلغ نصباً ، وأشد غيظاً ، وأوسع كمداً ، وأسرع غضبا ، من صاحب قضية ، يروح ويغدو ، جاهداً فى قضائها ، ويقضى ليله ونهاره فى بلبالها . فليكن من ابغض البغض لديك الوقوف أمام المحاكم بخصوماتها ومرافعاتها ، وتيقن أن الفوز فى هذا خيبة ، والربح خسران ، ثم تعهد بدنك بمثل ما تتعهد به نفسك كما قدمناه لك ، فلا تنهكه بالتعب ، ولا تهمله من حاجاته الضرورية . ولا تتركه عرضة للجوع والظمأ وطول السهر فيفسد نظامه ، ويختل توازنه ، وتتغلب عليه المرة الصفراء . وعليك بادمان النظافة والاغتسال ورياضة الاعضاء ، ومايحول دون تزايد الأخلاط وعسر الافراز ، ومن وصايا «فولتير» الفرنسى لبعض أصحابه « إذا كان لك عند امير رجاء تروم قبوله فاحذر ان تعرضها عليه إلا بعد ان تتحقق من خادمه إن كان الأمير قضى حاجته فى صباحه ، فان عدم توازن الجسم يولد كدر النفس فتشمل به كل ما يقابلها من الأمور ، ويعم سخطها كل الأشياء ، فترى كل حسن رديئا ، وكل جميل

قبيحا . ولقد ترى الرجل تتولاه المرة الصفراء فيكره فى يومه ما يستحسنه فى غده ، ان زالت عنه . وبالجملة فان النفس السليمة لا تسكن الا الجسم السليم ، وأكثر ما يصدر الغضب عن ضعاف البنية من الصبيان والشيوخ والمرضى والزمنى والعجزة والمقعدين .

ومن أفضل الطرق فى منع تولد الغضب ألا يكون الانسان شديد التطلع كثير السؤال ، اذنا لكل قائل وناقل فلا يندمج فى صف أولئك الذين لا يقر لهم قرار . ولا تسكن لهم حركة ، الا إذا وقفوا على ما يقوله الناس فيهم فيجلبون على أنفسهم ما يوقد جذوة الاحقاد فى صدورهم والأجمل بالعاقل أن يسمع قول السوء باذنه ويرى الاساءة بعينه ، فيغضى عنها كأنه لم يسمعها ولم يرها ، لا أن يبحث وينقب للوقوف على ما يقال فيه فى غيبته مما يسوءه سماعه ، « واذا مروا باللغو مروا كراما » ، ومن الذى سلم من ألسنة الناس ومن أسنة لومهم وتفنيدهم ، وقد قالوا فى الأنبياء وافتروا على الحكماء ، « وذو الجهل فى الدنيا بذى الفضل مولع » ، على هذا درجت القرون وكرّت العصور . فان كنت فاضلا فلا تتأثر بما يقوله

الجاهل فيك لجهله ، فانه لما عجز عن الارتفاع ليساويك في الفضيلة ، حاول أن يحطك إلى درجته لتساويه في النقيصة يفتريها عليك ، ويدلى بها إلى الناس ، فان أنت تأثرت بأقواله ، كنت جديراً بالنزول إلى مرتبته ، لأنك قد ساعدته على بلوغ مأربته . واعلم أنك إذا حصلت على جميل الأحدوثة ، من رجل واحد من أهل الفضل ، لم تبل سوء ذكرك فى أفواه ألف رجل من ذوى الجهل ، واعتبر نفسك الفائز الرابح ، لأن شهادة الفاضل تبقى ، وافتراء الجهلاء يزول ، وأحسن ما تدفع به إساءة الجهلاء أن تقابلها بالاحتقار والازدراء ، والتهاون والاستهزاء . وأن تقابل هناك الجد مزحا ، واذكر « سقراط » إذ خرج يوما للتنزه فاعترضه أحد الجهلاء فضربه على رأسه ، فالتفت « سقراط » ضاحكا إلى من حوله وقال لهم : « الآن علمت أن من الخطأ أن يجهل الانسان متى يجب عليه الخروج من بيته وعلى رأسه خوذة تستر رأسه وتقيه العوارض » ومرور الزمن من أنجع العلاج فى سكون الغضب ، فاذا هو ثار ثائره ، فلا تطاوعه فيما يمليه عليك فى الحال ، بل تربص ، ولا تأت أمراً من الأمور ، إلا بعد أن يمر عليه وقت فانك

لا تقدر على تبصر الصواب، وتمييز الرشد من خلال دخانه في التهابه، وكم نظر الغضبان فيما أغضبه بعد ساعة واحدة من انفعاله، فوهنت لديه الأسباب، ووهت العوامل، وعجب من نفسه، كيف يغضب ويحتدّ لمثلها، وناهيك بما يشمله من الأسف والندم إن كان طاوع غضبه فدفعه إلى إتيان مالا تحمد عقباه من الأفعال، والفضل في إرجاء العقاب إلى ما بعد سكون الغضب، فان ما يصدر عنك حينئذ إنما يصدر عن روية نفس عاودها رشدها، وثاب إليها صوابها، بعد الاضطراب والاختلال، ويكون العقل هو الذي يملي عليك ما يمليه بحكمته وهدايته، لا الغضب بجهالته وضلالته، فلا خطأ هنا في الحكم ولا ظلم في العقاب، ثم اصرف همك وعزمك، كله إلى رياضة النفس على مصارعة الغضب ومغالبته، عند أول نشأته، فانك إن تهمله حتى يشب ويضطرم استعصى عليك علاجه، وعسر عليك صده ورده، وكن منه في موقف الفارس المتيقظ لحركات قرنه عند النزال، فلا يتركه يتقدم عليه ولا يمتاز في الحركة دونه. ومن لم يبادر الى مكافحة الغضب صرعه. ومن لم يتغلب على بادرته غلبه، ومن لم يعمد الى إطفاء الشرارة الأولى

منه استعر فيه لهبه ومن سمات الغضب عند حدوثه أن يظهر العبوس ، والتقطيب ، والتجهم ، على وجه الغضبان . فعليه أن يجتهد ما استطاع فى محو هذه الآثار عن الظاهر ، ليؤثر بذلك فى تخفيف الغضب فى الباطن ، وقد راض « سقراط » نفسه على ذلك حتى وصل الى أن يقلب تلك العلامات الى ضدها . فكان من علامة غضبه عند أصحابه أن ينخفض صوته ويقل كلامه .

ولقائل أن يقول ان ما تشرحه هنا من العلاج أمر صعب الارتقاء ، عزيز المنال ، ومن لنا بدرجة «سقراط» فى الحكمة والعقل ، واشباهه من الحكماء فى العلم والفضل ، حتى نجرى على سننهم ، وننسج على منوالهم ؟ قلناله ان الانسان من أى طبقة كان إذا أراد أمرا واعتزمه وراض نفسه عليه ، فهو لاشك بالغه . ومن اجتهد فى تمكين القوة الحاكمة من نفسه ، تغلب بها على الأهواء ، وتسلط على الشهوات . وفى قدرة كل إنسان أن يكظم غيظه ، ويدفع غضبه ، وليس ذلك خاصا بالعقلاء والحكماء دون سواهم من بنى البشر ، ونبسط لك هنا حادثة من حوادث التاريخ التى تعد بالألوف ، تشهد فى آن واحد بالدرجة التى يصل

إليها الانسان فى غضبه من التناهى فى الفظاعة والجنون ، وبدرجة حكمه على نفسه ودفع الغضب عنه ، والمبالغة فى الجمود والسكون : كان أحد ملوك الفرس مدمناً للخمر وكان على ذلك ، كثير العربدة ، فاجترأ عليه أحد خاصته يوما فنصح له بوجوب الاعتدال لما فى سكر الملوك ، من العيب والنقص وانحطاط المنزلة فى أعين الرعية . فقال له الملك : « لا تظن أيها الرجل أن السكر يذهلنى عن صوابى ، ويفقدنى رشدى ، وسأريك برهاناً يشهد لك بأننى لا أزال سديد الرأى سديد النظر . سديد الساعد ، وان استرسلت فى تناول الخمر ، وأفرطت فى السكر » وأمر باستدعاء ابن الرجل الناصح ، فلما حضر أشار اليه بالوقوف عند الباب ، وأمره أن يرفع يده اليسرى فوق رأسه ، ثم تناول قوسه والتفت الى الوالد قائلا : « أعلم أنى أريد اصابة القلب برمية » وسدد سهمه فرشق به قلب الغلام ، فسقط قتيلا ، ثم شق عن أضلاعه وأخذ الوالد فأراه السهم مرشوقا فى سواد القلب ، وقال له ساخراً مبكتا : « أرأيت كيف أسدد الرمى وأنا سكران » ؟ فلم يكتف الوالد باظهار الرضا والقبول أمام هذا المنظر الفظيع ، فى ابنه ، بل ارتقى فى

النفاق فقال له : « أشهد أن إله الصيد والقنص لا يزيد عن الملك براعة فى تسديد المرمى ، واصابة الهدف » فانظر كيف قدر الرجل أن يحكم نفسه ، ويتخذ من قتل ابنه بهذه البشاعة سبيلا للتملق والتزلف . وإذا صرفنا النظر عما فى موقف هذا الوالد من الدناءة والنذالة - فقد كان الأجدر به أن يعرض نفسه على الملك ليجرب فيه تسديد السهم بدلا من ابنه ، علمت أن فى قدرة الانسان كظم الغيظ ، واظهار الارتياح بدل الغضب ، والانشراح بدل الكدر ، فى أشد الحالات وأصعب المواقف . لا فرق فى ذلك بين الفاضل وغير الفاضل ، والحكيم وغير الحكيم .

ودونك حادثة أخرى من هذا القبيل ، وهى أن أحد الجبابرة الطغاة غضب على أحد حاشيته ، فامر بقتل أولاده وأن يطبخوا لحومهم ، ثم دعا الوالد وأمره أن يأكل منها ، وقال له : « ما تقول فى حسن هذه الضيافة وهل اعجبتك الوان الطعام » ؟ فأجابه كيف لا تعجبنى وكل ما يوضع على موائد الملوك طيب لذيذ » ؟

فاذا أمكن الانسان أن يصل إلى هذه الدرجة من مصارعة الغضب ، والتغلب عليه من طريق السفالة

والجبانة ، أفليس فى إمكانه بالأولوية أن يبلغها من طريق العقل والفضل ؟

ونعوذ بالله من الغضب مع المقدرة ، واطلاق اليد بقوة اليأس ، فانه لا يقف عند حد ، بل يتدفق كالسيل الجارف ، وينقض كالشهاب الثاقب ، من شناعة الظلم ، وفظاعة البغى ، كما رأيت فى هاتين الحادثتين . ومع ذلك فقد وجدنا فى مثل هؤلاء الجبابرة العتاة من ملك نفسه عند الغضب ، ولم يجعل له سلطانا عليه ، مع ماله من حرية التصرف المطلق فى النفوس والأرواح . يروى عن أحدهم أنه سمع اثنين من حراسه يذمانه ويهجوانه من وراء خيمته فرفع الستار عنه وقال لهما : « إبعدا قليلا فقد يجوز أن يسمع الملك كلامكما » والأمثلة فى هذا الباب كثيرة . فاذا كان مثل هذا الملك يعالج نفسه من الغضب بهذه الكيفية مع قدرته على التشفى والانتقام ، بلا ضرر يخشاه ، ولا أذى يهابه ، فكيف لا ينتزع أى إنسان غضبه من صدره ومن ورائه الاضرار البليغة والعواقب المكروهة؟

ومن دواء النفس لتطهيرها من الغضب ، حسن الاكتفاء فى المعيشة ، والرضا بالحالة التى أنت فيها ، فلا

تشغل قلبك هما بما ليس فى يدك . ولا تكن كالسواد الأعظم من الناس لا يلتفتون الى التمتع بما هم فيه من نعمة بل ينسونها ويذهلون عنها ، بالتطلع الى ما فى يد الغير ، فلا هم يحمدون ما لديهم ، ولا هم ببالغى ما فى أيدى الناس ، فتنقلب النعمة عليهم نقمة ، ، ويقضون حياتهم فى هم ونكد . وشقاء وحسد . واتعب خلق الله من بات حاسداً

لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقل أن نرى من يرضى بقسمته مهما عظم شأنها ، إذا نظر الى قسمة أخيه مهما صغر قدرها ، فتجد صاحب المنصب الذى يحسده عليه الحاسد ، كئيبا حزينا لا هو راض عن نفسه ، ولا هو راض بمنصبه ، بل لا يفتأ يشكو سوء الحظ وسواد البخت ، مادام يرى فوقه من هو أعلى منه منصبا ، ولو كان فردا واحدا ، ولا يلتفت لحظة الى من دونه من الذين اعتلى عليهم بمنصبه ولو كانوا الوفا . وتلك شيمة سيئة من شيم الانسان يشقى بها طول حياته ، إذ لا يحمد أبداً على الكثير الذى يناله بل يغضب للقليل الذى يحرم منه . فاذا وليته وكيلا ، لم يزل فى وظيفته حزينا ، حسيراً ، حتى يصير مديرا ، فاذا صار مديرا لم يتجاوز

سروره بوظيفته الجديدة . أكثر من مسافة التهنئة بها ، ثم ينقلب الى عادته ، ساخطا شاكيا حتى يصير وزيراً ، لا يزال هكذا يتدرج من تطلع الى تطلع ، وينتقل من أمل الى أمل ، فيصبح مقسم العيش بين حزنين حزنه من بقائه فى المنصب الذى يسعى فى خلعه عنه خلع النعل ، وحزنه من بقاء من هو فوقه فى المنصب واستبطائه فى خلعه منه ، لا يزال هكذا حتى تنقضى حياته ولما تنقض مآربه .

واعلم بعد ذلك أن الشره فى جمع المال هو اس البلاء ، وداعية الشقاء فى هذا العالم ، وهو السبب الأكبر فى الكوارث والنوازل التى تنزل بالانسان فى حياته . وكل ما تراه من خصام بين الاقارب ، ونزاع بين الاصدقاء ، وخداع بين الاخوان ، وشقاق بين الجيران ، وخصام فى المحاكم ، ولو أحصيت ما يقع فى هذا العالم من الجنايات لوجدتها كلها صادرة عن حب المال ، فالولد يقتل أباه ، والمرأة تسمّ زوجها . والأخ يؤذى أخاه ، والأم تشنأ ولدها ، والعشيرة تفتك بالعشيرة ، والقبيلة تنازل القبيلة ، والأمة تهاجم الامة ، كلهم فريسة بين شواجر الأسنة وقواضب السيوف - « كأنما بين المنايا وبينهم أرحام - »

ليشتروا ذاك الذهب الأصفر بذلك الدم الأحمر ، واذا تأملت قليلا فيما وقع من الحروب والخطوب بسبب الطمع فى المال علمت أنه لا يكاد يوجد بين أيدى الناس دينار رنّان لم يلوث بقطرة من دم الانسان ، وتعسا لهذا الانسان وبؤسا ، فهو لا يرضى بعيش ، ولا يقنع بمال ، فتراه يقدم بمهجته على الأسد فى عرينه ، وعلى البحر فى هياجه ، وعلى المدفع فى قذفه ، طالبا للمال لينال به الجاه ، وطالبا للجاه لينال به المال ، ولا يزال فى هذه الدائرة الفاسدة حتى يصرعه الموت فى شقائه وبلائه ، وهو لاه عنه ، كأنما يتوهم فى الحياة الخلود . وكان الأصوب أن نقضى هذه الأيام المعدودة التى نعيشها فى الدنيا براحة وسلام متمتعين بما وهبه الله لنا من الطيبات ، لا أن نطمع ونتطلع إلى مافيه غيرنا من فضول العيش ، وكماليات الحياة ، ولو تحققنا من أمرهم لوجدنا أن مالديهم مما يبهر النظر فى الظاهر ، لا يساوى ما هم فيه من الهم والغم بطلب الازدياد فى الباطن ، ولم ترض أن تتبدل حالك بحالهم ، ولا ما أنت فيه من الرضا والاكتفاء بما هم فيه من السخط والغضب .

ولقد يتوهم بعض الناس أن من الغضب ما يدل على

الشهامة والأنفة وعظم النفس ، وليس الأمر على ما يتوهمون. لأن تأثر النفس باساءة المسيء يحط من قيمتها ، وينزل بقدرها عن قدر المسيء . والنفس العظيمة التي تعرف قدرها وتدرك كرامتها ، لا تتأثر من الاساءة ولا تكاد تحسها فالانتقام مفقود لديها . لأن ما لا يحس لا ينتقم له . والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء لا يؤثر فيها ما ترميها به من الحصباء ، وكالمجن يرد السهم مكسوراً ، والسيف مفلولا . والحوادث وان هي عظمت ، لا تحرك النفوس العظيمة ، لأنها فوق الحوادث والخطوب ، فما أبعدها عن ملامستها ، وأنآها عن تأثيرها . وما يتأثر الا النفوس الضعيفة . والضعف في النفس كالجرح في الجسم اذا مسها أقل شيء تألمت له فهي أخت السامري تقول لكل شيء «لا مساس» ولطالما تأثرت بالعطش والجوع فأخذتها الحدة ، وتولاها الغضب ، ومن ذلك ما تراه على وجوه الصائمين في شهر رمضان من التقطيب والعبوس ، وسرعة الانفعال ، وربما تصنعوا ذلك فنهروا أصحابهم ، وشتموا أولادهم وضربوا خدمهم ، ليعتقد الناس أنهم صائمون وهم يعتذرون لأنفسهم ، والناس يعتذرون لهم بالصيام . فأفسدوا شرف

العبادات بأقبح الرذائل ، وقلبوا أعمال العبد عند الله الى أحب الوسائل عند الشيطان فى القاء العداوة والبغضاء بين عباد الله ، وهم ينامون نهارهم ، ويسهرون ليلهم ، ويسمرون فيه باكل لحوم الناس بعد افطارهم بلحوم الحيوان ، ويؤذون الناس بحمقهم وغضبهم ، ثم يزعمون أنهم أدوا واجبا ، وقاموا بفرض ، ولا يعلمون أن الصيام مفروض لتسكين النفوس ، وقمع الشهوات ، وصفاء الارواح ورقة القلوب .

ومما يجرى هذا المجرى أن الناس اذا رأوا رجلا من ذوى البيوتات قد احتدّ وغضب ، وشتم وسب ، اعتذروا له لأنه من الأشراف . أهل البيت النبوى ، لحدة فى طباعهم فيحطون بذلك من قدر أولاد النبى بنسبتهم الى الحماقة ، وليس فوق هذا جهل ، لأن الله لم يخلق أحداً أحلم من رسوله عليه السلام وأولاده بضعة منه ، وقد تحمل من قريش ما لم يتحمله بشر ، فكم فعلوا به الأفاعيل ، ووضعوا على عنقه الشريف وهو يصلى جلد الشاة وفرثها ، فلم يغضب بل قابل ذلك بالدعاء لهم أن يهديهم الله ، وكسروا رباعيته فلم يغضب بل صار يأخذ الدم بيده ويرمى به فى الهواء وهو يدعو لهم خوفا عليهم أن يستأصلهم الله . وكانوا كل يوم يقابلونه

باهانة جديدة وإساءة بليغة . فكان يقابلهم بالحلم والعفو ، ويستغفر لهم مع ماهم عليه حتى عاتبه الله بقوله (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وعفا عن قاتل عمه حمزة رضى الله عنه وقد كان النضر بن الحارث من أشد المشركين عداوة للنبى ، فأمر عليه السلام بقتله حيث لم يقبل الاسلام فرثته أخته بقافية خاطبت النبى فيها بقولها :

أمحمـــد ولأنت ضنء نجيبة
فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال عليه الصلاة والسلام « لو سمعت قولها قبل قتله ما قتلته . فكيف ينسب الجهلاء لبضعته الطاهرة شيم الغضب والحمق وحدة الطبع ؟ اللهم إن هذا لبهتان عظيم

ومن الناس من يغضب فى بيته على خدمه اذا رأى إناء وضع فى غير محله ، أو عثر على شىء من الغبار فوق بساطه الذى أباح لزائريه أن يطأوه بنعال وطئت الأزقة الممطورة ، أو ينزعج من مواء هر ، أو هرير كلب ، أو صياح ديك ، أو من ضوضاء الخدم فيما بينهم فيهب فيهم بالسب والشتم ويهم

بالصفع واللكم كأنه يريد أن يكون بيته فى سكون كالصحراء لا أنيس بها . وقد كان الخليفة المأمون يتجاوز لخدمه عن تقصيرهم وعبثهم حتى جرأهم بحلمه عليهم فقد نادى الخدم مرة وكرر النداء فدخل عليه أحدهم وهو يقول له « ألا يأكل الخادم ولا يشرب ولا يصلى » فلم يغضب عليه ولهذا قيل فى مثل ذلك إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق خادمه ، مع أن هذا الذى تؤذيه أقل حركة فى بيته ، ويؤلمه أقل انحراف فى أوضاع أثاثه ، فانه يسمع فى الطريق من الضوضاء واللغو وفحش القول أشنع ما يكون ، ويرى فى سيره من الأوحال والأوساخ وكل ما يؤلم النظر فلا يتأذى ولا يغضب ، بل يمر بذلك كله مر الكريم ، ويتحمله تحمل الحليم ، أفما يكون له بعد ذلك بعض هذا الحلم فى بيته فيصلح ما اعوج فيه باللطف دون العنف ؟ ولكن الانسان يريد أن يتذوق طعم الحكم المطلق فى بيته ، وان كان عبداً ذليلا فى بيوت حكامه وأمرائه ، وإذا لم يكن للنفس رادع منها تمادت بصاحبها فى ضروب الظلم والغشم . وقد كان بعض الحكماء اذا اضطجع فى فراش نومه أخذ يحاسب نفسه عما فعله فى نهاره ، ثم يقيم من عقله قاضيا عادلا للحكم

عليها فيما فرط منها فى نهارها ، ولا ريب أن شيطان الغضب يذهب عنه إذا علم أن أعماله ستعرض كل ليلة على قاض يقضى عليه بالعقاب ، وأى نومة لذيذة ليس فيها حلم اذا أغمض الانسان جفنه بعد أن تحقق فى نفسه أنه قضى نهاره بالصفح والعفو وإسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ؟

وجملة القول فى جميع ما قدمناه أن العمر الذى وهبه لنا البارى سبحانه وتعالى وهو أنفس موهوب ، وأحب محبوب ، طويل بالتدبير ، قصير بالتبذير ، وكلنا وإن اختلفنا فى جل الامور قد اتفقنا على التبذير والاسراف فى هذا الموهوب النفيس ، ولا إسراف الوارث السفيه فى مال أبيه لا يعرف لكثيره قيمة وقت السعة عرفانه إياها وقت الضيق . كذلك إذا حانت ساعة الأجل عرفنا قيمة ساعات العمر ، معرفة الوارث السفيه قيمة الدينار الأخير من ماله ، ويود كل واحد منا لو يفتدى ساعة يطول بها عمره بكل ما ملك واقتنى فى حياته ، وما حصل عليه من جاه ومال . وما أمض ما يتذكره حينئذ ، كيف أنه أضاع الجانب الأعظم من ساعات عمره ، وقضى معظم أيامه فى غضب وحقد وكراهة وانتقام ، ونزاع وخلاف وخصام وشقاق

فكم أضاع أوقاتا نفيسة فيما لا يفيد من الغضب ، وغفل فيهـــا عن التمتع والتلذذ ، تلك الاوقات المزدانة بالصحة والعافية والغنى والشبـاب ، وفى السنة الشريفة « الدنيا كســـوق قام ثم انفض » فأى الرجـلين يوصف بالعقل والحزم؟ رجل دخل هذا السوق فقضى وقته فى الاطلاع على محاسنه وبدائعه ثم أخذ منه ما اشتهى وخرج منه مملوء الوطاب من أطايبه . أم رجل دخله فى الخصام والنزاع ، والضراب والصراع ، فيخرج منه خالى اليد من المتاع ، مرضض الجسم ممزق الثياب ، ياعجبا خلق الانسـان للذهاب والفناء ولـكنه يصف حقده بالخلود والبقـــاء ، ويقضى عمره فى أحكام عقدة العداوة بين زيد وعمرو ، وهو لا يدرى أن الموت يقطعها فى لحظة قطع «الاسكندر» عقدة «جورديان» . وإن الانسان يغضب ويحقد ويكيد ويدبر والقضاء يعد ساعات الأجل فوق رأسه ساعة أثر أخرى وهو لاه عنه حتى يختطفه الموت قبل من يكيد له وبعاديه ، فلم لا يعيش الانسان اذاً خلوا من العداوات فيكون مستريح البال ساكن النفس محبوبا فى حيـاته ، مأسوفا عليه بعد مماته . وما بالنا نضرب بعضنا بعضا ،

ونؤذى بعضنا بعضا ، ونحن مصفدون جميعا فى سلسلة أطرافها فى يد القضاء والفناء وهلا يشير العقل أن نقضى ساعات هذا الأجل القصير فى الهناء لا الشقاء ؟

بقى علينا أن نذكر للقارىء بعد الذى عرضناه عليه مما يقال عن رذيلة الغضب اجمالا وتفصيلا ، ان الغرض الأول هو أن نقيم له البرهان على أن الغضب ليس بالامر الطبعى فى النفوس البشرية ، لأن ماهو طبعى لا بد أن يبقى على الزمن ، والغضب يمحوه مرور الزمن عليه ، فهو ليس بطبعى ، وما لم يكن بطبعى ففى قدرة الانسان التغلب عليه ، وما يمحوه الزمن بمروره يمحوه العقل بنور برهانه ، والغضب إذا ابتدأ فى النفس ولم يتداركه الانسان بفضل عقله اشتعل اشتعال الحريق ، واندفع اندفاع السيل ، واخترق النفس اختراق الصاعقة للمادة ، فلا تتوهمن أنك تضع له حده او تقتصر منه على مقدار ، نعم ان الوصول الى محو الغضب من النفس أمر صعب المنال ، وانما الغرض الذى نرمى اليه هو أن نعتقد أن الغضب ليس له حد يقف الواقف عنده ، وإنك تستطيع بطول الممارسة والتفكير أن تتغلب عليه . والرجاء فيك أيها

أيها البارىء الكريم ، إن أردت تطهير أخلاقك من رذيلة الغضب ، أن تقرأ ما جمعناه لك فى هذا الباب بتدبر وإمعان ، وتعاود قراءته المرة بعد الأخرى حتى يكون بعض الشىء منه حاضراً فى ذاكرتك ، فيردك باذن الله عن الاندفاع فى سورة الغضب ، إذا رأيت ما لا يرضيك ، وقد جربت ذلك فى نفسى ، فكلما همت وهى الأمارة بالسوء ، أن تغضب لشىء مما يغضب له الناس ، ذكرتها ما جمعته من البراهين على رذيلة الغضب ، وأنه لا يليق بالذى يسطرها ويشرحها أن يستفزه الغضب ، ثم أشبعتها تبكيتا وتأنيبا ، فتنصرف عنه المرة بعد الأخرى ، كما أننى جربت ذلك فى غيرى أيضا : فان لى صاحبا ترضيك طباعه من المروءة والفتوة ، إلا أنه حاد المزاج ، سريع الغضب ، وأكثر ما يعتاده ذلك ، إذا رأى تقصيرا من الخدم فى مجلسه ، أو على مائدته ، فيسب ويلعن ويحتقن ويضطرم ، فقلت له يوما فى ساعة صفاء أننى أكتب فى الغضب فهل ترغب فى أن أقرأ لك شيئا منه ؟ جئته بالصحيفة التى عددت فيها ما يلتمس للخدم من الاعذار فى تقصيرهم فتأمل ذلك قليلا ، ثم استحسنه كثيرا ، وصرت كلما هم بالغضب على خادمه ، أذكره

الصحيفة ممازحا ، فيرتدّ فى الحال عما كان يجرى على لسانه فى حدة غضبه ، حتى انتهى هو نفسه عند ما يحس من نفسه الغضب أن يقول لى ممازحا ، ناولنى الصحيفة ، فينقلب الغضب ضحكا والعبوس بشرا

ونقول فى مختتم الكلام أن غرضنا كله ، هو أن ينتفع القارىء بتدريب نفسه على حسب ما بيناه فى هذه الرسالة لا أن يمر عليها مروره على باقى الرسائل والمقالات ، فلا يتذكر ما فيها ، بعد ما يطويها ، بل يعتبرها مثل تذكرة الطبيب التى دونت فيها صنوف العلاج وتركيبه ليستعمله بعد تركيبه وإعداده . والله الموفق والمستعان ، على ما فيه شفاء الأرواح والأبدان .

ساعات الحياة

إن العمر طويل بالتدبير ، قصير بالتبذير ، كما أشرنا إليه فى آخر كلامنا عن « الغضب » وإن الانسان يشتغل فى حياته أكثر مايكون بسفاسف الأمور التى تجره إلى الغضب ، فيجره الغضب إلى مضايق الأكدار ، ومنغصات الحياة ، فيضيع من عمره أكثره فى الشقاء والبلاء ، وكان يجب عليه أن يقصره كله على ما ينفعه ، لا أن يقضيه فيما يضره ويشقيه . وهو يعرف بالطبع أن زخارف الدنيا ، وبدائعها . وذخائرها ، ورغائبها ، لا تساوى فى ميزان عقله دقيقة واحدة من عمره . بل ان جميع ما يحتوى عليه هذا العالم من شموسه ، وكواكبه . أقل قيمة عنده من تلك الدقائق التى يصرف الآلاف منها فى الأسف ، والأسى والحزن ، والندم ، إذا لم يبلغ ما أراد من سافل مشتهياته ، ولكنه لا يحس هذه المعرفة ، إلا إذا حم القضاء ، وقرب الأجل من الانتهاء ، فيتمنى أن لو أنفق ما فى الأرض جميعاً لزيادة تلك الدقيقة فى عمره . وكان يجب عليه أن يتذكر

ذلك ، والزمن فى ملكه ، تصرفه ، ينتفع به فى وجوه المنافع ، لا أن يتذكره عند ضياع الفرصة ، حيث لا يجدى التمنى والترجى ، وحيث يرى « لو » و « ليت » حرفين يجرانه إلى الندم والأسف ، ويؤكدان له الهلاك والتلف ، وينسب البخل إلى الطبيعة ظلماً لأنها لم تهبه عمراً طويلا يليق بشرف أعماله من بين سائر الحيوان ، وشكونا جميعاً من الطبيعة ، ووصمنا لها بالبخل ، لقصر أعمارنا وسرعة نفادها بادراك الموت لنا عند ما نستعد للحياة ، داء قديم استوى فيه العاقل منا والجاهل ، وهـــذا رئيس الطب « ابقراط » يقول : « الحياة قصيرة والفن طويل » وجاء من بعده رئيس الحكماء « ارسطو » يشكو من الطبيعة لتفضيلها بعض الحيوان على الانسان بطول العمر ، كالحوت ، والفيل ، والغراب ، والببغاء ، فانها تعيش قرونا ، والانسان الذى هو سيدها ومولاها ، وقدره فى الدنيا أعظم ، ومقامه فيها أكرم ، وسعيه عليها أعلى ، وقيمته فيها أغلى ، لا يكاد يبلغ القرن إلا نادراً . والحقيقة ان نصيبنا ومقسومنا من الزمن ليس بقليل ، وإنما إسرافنا فيه جعله موصوفا عندنا بالقلة ، والحياة فى الواقع طويلة تكفى للقيام بالأعمال العظيمة ، لو

استعمل الانسان أوقاته فيما ينبغى على ما ينبغى ، أما إذا أضاعها فى الملاذ والشهوات ، والكسل عن العمل ، أو فى النزاع ، والخصام ، والصراع ، والضراب ، دون النافع من الأمور فستأتيه الساعة الأخيرة على عجل فاذا الحياة التى لم يحس سيرها قد أحس مضيها .

وإذا كانت الطبيعة لم تهبنا حياة طويلة فالواجب علينا ألا نعمل على تقليلها وتقصيرها . ولا يجوز أن نشتكى من قلة أيام العمر ، بل نلوم أنفسنا على تضييعها عبثاً والتفريط فيها ، وحياتنا واسعة لمن يحسن التصرف فيها ، كالثروة فى يد الحازم المقتصد يستثمرها وينميها ، لا كالثروة فى يد الوارث السفيه يبذرها ويسفيها ، ومع ذلك فانك تجد الناس كأنهم أجماع على السفه والتبذير فيها ، فترى الواحد منهم يقضيها فى جمع المال وادّخاره فينتظم عقود الآلاف فى خزائنه ، وينثر عقود السنين من عمره ، فيبغته الأجل ، وقد انتظم له ما ينتفع به غيره من وراثه ، وانتثر منه ما ينتفع به من أيام حياته ، وترى الثانى يصرف أوقاته فى التلهى بالملاذ والشهوات فى غفلة مسترسلة ، فتحل ببدنه الأمراض والأسقام ، ويوقظه الأجل كأنه كان فى

حلم أو منام، وتجد الثالث يتطلع الى ما فى يد الغير، ويطمع فى أشياء كثيرة ليس أمرها بيده، فتذهب حياته ضياعا فى الكدر والشقاء، وتجد الرابع يستظل بظلال الكسل والراحة، فيذهب عمره سدى، وتشاهد الخامس يخاطر بنفسه، ويلقى بها فى المهالك لربح يربحه وهو غنى عنه فيموت ذاهلا بين المخاوف والمتاعب، وترى السادس مشغوف الفؤاد بحب المعارك والوقائع فلا ينتهى عمره إلا بالوقوع فى التهلكة أو إيقاع الغير فيها، وتبصر السابع يتهالك ويتفانى فى خدمة من لم يستحق الخدمة، ولا يعترف له بجميلها، ثم تجد القسم الأعظم من الناس يحسدون غيرهم على أرزاقهم وأقسامهم، فيقضون حياتهم فى الشكوى من القضاء والقدر. وآخرين ليس لهم مقصد معروف، ولا مسلك مألوف، ولا غرض معين، ولا سبيل بيّن، فهم يسيرون مع كل ريح، ويندفعون. مع كل تيار، وينتقلون من عمل إلى عمل، بدون تمامه ولا اجتناء فائدة منه. وغيرهم تراهم حيارى بأنفسهم يقضون الحياة بين التردد والتذبذب، وفتور الهمم وانحلال العزائم.

وقصارى القول أننا لا نحيا الا جزءاً يسيراً من أعمارنا، وما

بقى منها لا يسمى حياة وإنما هو وقت يمضى وأيام تمر ، وقد أحاطت بنا الأهواء والرذائل من كل جانب . فلا تترك لنا وقتا نتمكن فيه من اتجاه انظارنا نحو الحقائق والانتفاع بها وإن كان لنا فترة بين عواصف تلك الأهواء والشهوات . فانما نقضيها فيما تخلفه لنا من الجمود فى النفس ، و الخبل فى الجسم ، كما يقضى راكب السفينة وقته بعد إضطراب البحر من الأعاصير والزوابع .

ولا تظنن أن تضييع العمر والتبذير فيه من شأن العامة من الناس وحدهم بمشاغلهم المختلفة ، وضروراتهم المنوعة ، وحاجاتهم المعددة وجهلهم بالحكمة العالية ، بل تضييعه والاسراف فيه من الخاصة والأشراف وعلية القوم أكثر وأعم ، وإذا تأملت فى أحوال هؤلاء الذين يعدهم الناس بينهم أغنياء ، أقوياء ، أعلياء ، سعداء ، لوجدت أعمارهم أعظم تضييعا ، وأبلغ تبذيرا ، لاتساع دائرة أشغالهم ، وانفراج زاوية أفكارهم وأوهامهم ، ولحسبتهم كأن بهم مساً من الشيطان وهم مقبلون مدبرون فى هيجاء من التحاسد ، والتباغض ، والمباهاة ، والمباراة ، يهجمون على غيرهم تارة ، ويدفعون عن أنفسهم أخرى ، فهم أبعد عن السعادة

بعدهم عن الحكمة .

وإذا أنت رجعت إلى نفسك ، وجمعت ما تشتت من أفكارك ، ونظرت نظرة الحكيم إلى أوقات حياتك ، رأيتها أما مسلوبة منهوبة منك ، أو ضائعة تحت طيات الغفلة ، أو متروكة باهمالك ، وأسوأها حالا ، وأكبرها معرة ، ماذهب منها بطريق الاهمال ، وعلى ذلك فكل العمر ينقضى فيما لا ينبغى ، ومن ذاك الذى يعرف قيمة الزمن ، ويقدر الحياة قدرها ، ويعلم أن كل لحظة هى جزء من فنائه ، وأن انفاس المرء خطاه إلى أجله ، والخطأ كل الخطأ ، أن نظن الموت كل أمامنا ، وقد مضت أجزاؤه من ورائنا لأن ما يذهب بالانقضاء من العمر هو فى الحقيقة الموت بذاته ، فاذا أدركنا ذلك وتنبهنا إليه قبضنا على أوقاتنا قبض البخيل على دراهمه ، وأنفقنا منها ويدنا ترتعش كما ترتعش يد الشحيح عند الانفاق ، ولئن كان البخل بالمال رذيلة ، فالبخل بالعمر فضيلة . فاذا فعلنا ذلك كانت أوقاتنا حاضرة لدينا بملكنا ، وانحل عنا ارتباطنا بالمستقبل المجهول ، وعشنا فى حقيقة ما نملك فى الحاضر ، لا فى وهم مالا نملك من المستقبل ، وكانت ساعاتنا الحاضرة خيراً من سنتنا الآجلة . واعلم أن

كل مافى هذا العالم مما تظنه ملكا لك ، هو خارج عن قبضتك إلا الزمن ، فانه الملك الصحيح الذى وضعه الطبيعة فى أيدينا وأغرب كل غريب فى أعمال الانسان انه يحرص على الأشياء التفهة التى يقدر على تعويضها اذا فقدها ، ويقوم بشكر من يحتفظ له بها ، ولا يعتنى بالزمن الذى لا يعوضه شئ فى الدنيا ، بل ربما شكر من اضاعه معه ، ثم نراه كالأسد يكاد يفترس من تعدى على بعض ما يملكه ، ونراه يرضى عمن تعدى على اوقاته بالسلب ، ولو سلبه سالب ساعة من معدن الحديد لم يرض عن القضاة الا اذا حكموا عليه بالحبس والتنكيل . لكن إذا سلبه سالب ساعة من معدن الزمن ضاعف له العطاء ، وأجزل الاحسان ، وزاد له فى الحمد والشكران ، وطلب منه العودة إلى مثل هذا الخسران .

ولن تجد انسانا يقدر أن يقول لك انه استعمل جميع أوقاته فيما ينبغى وأنه لم يخسر فى حياته وقتا ما ، وأحزم الناس من يدرك أنه يخسر من أوقاته لأن السواد الأعظم منهم يخسرون أوقاتهم . ويدركون انهم يخسرونها . ولا يحسون هذه الخسارة ، الا فى وقت الحاجة اليها عند دنو الأجل . وهناك يعرف الانسان قيمة الزمن

الذى طالما طلب من صاحبه ونديمه وقت الصفاء ان يصرفه معه فى اللهو، واللعب، أو يقتله معه، على ما فى تعبيرهم، وهو فى الحقيقة إنما يقتل نفسه.

ولو أنك سألت رجلا بلغ أقصى العمر ان يعرض عليك حساب أيامه بالتفصيل، لما أضاعه فى النوم، وما أضاعه فى حاجات بدنه، وما أضاعه فى لبس ثيابه، وما أضاعه فى القضايا والدعاوى، وما اضاعه فى الانتظار، وما أضاعه فى النزاع مع الخدم والخصام مع الأقران، وما أضاعه فى خيالات الحب وأوهام العشق، وما أضاعه فى المرض، وما أضاعه فى النرد والشطرنج وورق القمار، وما اضاعه فى التفكير والتدبير لدس الدسائس، وما أضاعه فى الحزن والكدر، وما أضاعه مع الثقلاء، وتكلف المحادثة مع الجلساء — لوجدته لم يعش شهرا واحدا من ذلك العمر الطويل لنفسه، فان الناس قد أجمعوا على نسيان الموت، فبنوا أمورهم على الخلود، فهم ينفقون أوقاتهم بغير حساب. وليس يخطر على أفكارهم سرعة مرور العمر، وقرب نفاده، إلا إذا اختطفت المنون على مقربة منهم قريبا من أقاربهم، أو صديقا من أصدقائهم، هنالك يتنبهون لأنفسهم بعض

التنبه ، ويتذكرون بعض الذكرى ، ويعلمون أن الموت حق ، ومع ذلك تراهم يتمحّلون الأعذار فى أسباب الموت ، ويتساءلون عن الداء الذى عقبه الموت ، ليطمئنوا أن الموت إنما حل بسبب داء عضال لخلوهم منه ، كأن الموت لاسبيل له على ابن آدم الا من هذا الطريق ، ثم لاتلبث هذه الذكرى فيهم أن تزول بانهماكهم فيما هم عليه ، ويذهب فى تياره ذهاب الغثاء فى السيل المنحدر ، ويعودوا الى الاشتغال بأعمال المخلدين . ولهذا تراهم يعطون غيرهم فى اوقاتهم عطـــاء من يمتح من بئر لاتنضب ، مع ان اليوم الذى يجود به الانسان على غيره من عمره ، او يقضيـــه فى سخيف من الأمر ، قد يكون آخر غرب من ذلك القليب ، فيجب علينا أن ننفق من أوقاتنا انفاق من يعلم انه سيموت غداً ، لأنك اذا نظرت الى تراكم المهالك ، وتقاطر الأخطار علينـا ، من فوقنا ومن تحتنا وعن ايماننا وعن شمائلنا ، والتفت الى كتائب الأمراض والعلل التى لا تزال تدأب على الهجوم علينا ، لتدمير هـذا البدن الضعيف ، تيقنت اننا جماعة اسرى فى سلسلة امام السياف ، يأخذ منها واحداً بعد واحد . لـكنك اذا نظرت

الى اتساع مطالبنا التى لا ينتهى منها مطلب إلا أعقبه مطلب والى ما ترمى اليه إرادتنا من الغايات البعيدة ، تخيلت اننا قوم كتب لهم الخلود فى الدنيا فلا تؤثر فينا المخاوف ، ولا تفعل فينا النوازل المنتشرة على وجه الأرض ، انتشار الغبار عليها . ولا يدركنا العطب ، ولا يبلى منا البدن ، بل كأننا انتقلنا من سكنى الغبراء ، الى سكنى السماء ، وانتفضنا من صور الأجسام البالية الى مجردات غير فانية ، وانما نحن فى غفلة عن أيام العمر وذهول عن قدر الحياة .

ولو ان انساناً علم انه لم يبق له من عمره إلا ثلاثة أيام ، وكان شجاع القلب كعلىّ ، لا يبالى اوقع على الموت ام الموت عليه وقع ، لظهر لك مما يعمله فى هذا الظرف اليسير من الزمن ، أنه يسع كثيراً من الأعمال كمثل الذى يتأهب للسفر يقضى فى قليل من الوقت كثيراً من العمل ، فلو انه استعمل اوقات عمره على هذا النسق ولم يصرفه بالباطل ، لتبين له ان العمر متسع طويل .

ومما نضربه لك مثلا فى الحرص على الوقت واستعماله استعمالا نافعاً ، ذلك العالم الالمانى ، من اهل القرن الماضى ، إذ رأى أن يستعمل مدة الانتظار التى لا

يخلو منها انسان بين جلوسه على المائدة وحضور الطعام فى عمل نافع فكان يصرفها فى التأليف حتى صدر عنه كتاب من اعظم الكتب قدرا ونفعا سماه « الدقائق الخمس قبل الطعام » ولو اننا حسبنا ما يتجمع من هذه الدقائق الخمس التى نصرفها عبثا فى مدة عشرين سنة لكان خمسة وسبعين يوما من خالص الزمن ولبابه ، ولا يكاد الانسان يحصل على مثل هذه المدة فى سنة من سنيه خالصة له من الشوائب .

فانظر الى هذا العاقل كيف قضى ما يضيعه كل انسان من مثل هذه المدة فيما ينفعه وينفع الناس . ومن الناس من يؤجل متعته بالحياة ولذة العيش وراحة البال ، اجل يقدره وعمر يسميه ، فيقول اذا وصلت الى الخمسين التفت الى استصفاء اوقاتى لنفسى فانبذ المناصب ومعاطبها ، والمراتب ومتاعبها ، واعيش فى راحة وصفاء ، ولذة وهناء ، فيتصرف المسكين فيما لا يملك ، ويحكم على مالا يعلم ، ويقضى على مالا يدرى ، والقضاء واقف على رأسه يحل ما يعقد ، وينقض ما يبرم ، ويبدله التأجيل بالتعجيل

والمرء كالحالم فى المنام يقول إنى مدرك أمامى

فى قابل ما فاتنى فى العام والمرء يدنيه إلى الحمام
مر الليالى السود والأيام إن الفتى يصبح للاسقام
كالغرض المنصوب للسهام أخطأ رام وأصاب رام

ومن الخطأ الفاضح، والخطل الواضح، ألا يختار الانسان لراحة نفسه إلا الجزء الأخير والا شفاقة ما يستقى من عمره لنزهة أفكاره فى فراديس هذا الملكوت، وذخائر هذه الطبيعة، وبدائع كنوزها، وجمال صنعها، وتكوينها فهو يهبها أقصر وقت من عمره، فكأنه يريد أن يدخل فى أبان الخروج منها. ولقد أنطقت متاعب العلاء ومشاق المناصب، أعاظم الملوك والقياصرة، الذين يحكم لهم بالسعد وطيب العيش فى هياكل العظمة والجبروت، بكلمات، لو علم البائس الفقير بما وراءها من الهموم والغموم لاستصغر ما استعظم من أمرهم، ولأيقن أنه هو المتنعم المغبوط دونهم، فمن ذلك أن ملكا من أكبر الملوك قدراً، كان يلهج دائما فى كثير من كلامه بقوله: «متى أعيش لنفسى يوما واحداً من أيامى» وكانت كل أمنيته أن يخلو من مشاغله لينال هذه البغية، فلما علم أن لا سبيل اليها، كتب إلى كبراء دولته يقول لهم «لا أزال

أتطلع إلى التفرغ من الأعمال لأعيش لنفسى لا لغيرى ، ما بقى من عمرى ، ولكن علمت أننى لا أطيق ذلك الآن فسلمت لحكم الضرورة ، وهأنذا باق فى المشاغل والمتاعب ، لا لذة لى فى الحياة إلا الأمل فى الوصول إلى غرضى الذى أتطلع اليه يوماً من الأيام » وآخر مثله كان يقول : « أنا الرجل الوحيد الذى لم ينل إجازة يخلو بها من مشاغله ، وهو الذى يعطى الاجازات لغيره .

واعلم أن الحاكم والوزير إذا جلس فى دسته ، واستقل بمنصبه ، فقد نسى نفسه أو كأنه مات فلا يبعث إلا وقت الفراغ من عمله . ومنهم من يصل نسيانه لنفسه إلى ما بعد ذلك أيضاً ، فقد حدث أن اللورد «بيكسفيلد» وزير انكلترا تقدم ليركب مركبته مع زوجته . فلما دخلت المركبة بعده وأقفلت بابها أصابها فى اصبع من أصابعها ، فلم تتقزز لذلك الألم الشديد وكتمته وضبطت نفسها مخافة أن يظهر عليها علامة من علامات التوجع فى مسافة الطريق حتى أوصلت زوجها إلى وزارة الخارجية وعادت فاستدعت الطبيب ، فلما رجع زوجها وجد

الطبيب مع أهلها بجانبها وعلم بما جرى ، فأخذ يعتب عليها في تحملها للالم وكتمانها الأمر عنه فقالت خشيت إيقاظك من الاستغراق في الفكر ، واشتغالك بتدبير أمور الدولة ، ونوادر الاستغراق في الفكر والذهول عن الحياة وطول النسيان كثيرة مستفيضة منها ساعة « نيوتن » التي رماها في الماء المغلى بدل البيضة التي كان يريد أن يأكلها فهل كان هذا العالم العظيم عائشا لنفسه ؟ كلا - وانما أراد أن يموت في الحياة ليعيش بعد الممات .

وشبيه بهذا أحد المبذرين المسرفين في أوقاتهم ، فقد كان يلعب بالنرد فأحس العطش فطلب ماء ليشربه ، فلما جيء به تناول الكوبة بيده فرمى بها في النرد وابتلع الزهر من النرد الذي كان يلعب به في اليد الأخرى . فهل يستطيع هذا اللاعب أن يعد نفسه في الأحياء في ذلك الوقت الذي اختلس النرد منه زمنه النفيس ، وعوضه عنه ما ينتهي اليه اللاعبون من النزاع والصراع ؟

ومما شاهدناه من نوادر الذهول أن المسيو « كارولیدس » أحد كبار العلماء المقيمين في الأستانة ، اشترى يوما من الأيام سمكا صغيرا فلفه في غلاف من

الورق ووضعه فى جيبه ، وذهل عنه ذهول العلماء ، فكان كلما دخل على أصحاب له شموا رائحة كريهة ، فقاموا يبحثون فى أركان المكان فلم يروا شيئا . ولما تكرر ذلك فى بيت آخر تذكر ذلك السمك فاخرجه من جيبه منتنا : فضحك الحاضرون واشتهرت عنه تلك الحكاية فى الآستانة .

وكان أحد السفراء يمشى فى شوارع الآستانة فى يوم مطير ، وعلى رأسه مظلة تقيه المطر ، فذهل عنها وعن وقايتها له ، ووقف بباب حانوت ليشترى مظلة ، وعند ما أراد أن يضع يده فى جيبه ليدفع ثمنها ، ادرك أن المظلة الأخرى فى يده وعلى رأسه .

ومن ذلك الحكاية المشهورة بين المصريين التى يروونهـــا عن أحد الأجانب من قضاة المحكمة المختلطة بالمنصورة ، وهى أنه دعا جماعة من إخوانه لتناول طعام الغداء عنده فى الغد ، وذهل ان يخبر بذلك طاهيه . فلما حل الميعاد ، وحضروا ، ولم يجدوا عنده ما يأكلونه ، فاعتذر لهم بذهوله . و اعتزم بعـد ذلك دعوتهم مرّة ثانية ليعوض عليهم مافاتهم . فبدأ بالأمر لطاهيه فطبخ طعاما كثيراً

بعدتهم ، ثم ذهل عن دعوة أصحابه ، ولما حضر الى البيت ، وجلس على المائدة ، وجد أصنافا كثيرة ، فسأل الطاهى ، عن سبب ذلك فذكر له ما أمره به ، فبهت الرجل من ذهوله .

ومثل هذا كثير مستفيض بين النـاس ، فهل يعده العاقل من الانتفاع بأوقات العمر والتمتع بالحياة ؟

وقد أطبق الحكماء على أن معرفة الحياة ، ووجوه الانتفاع بها علم هو أصعب درسا ، وأشق تحصيلا ، وأبعد تناولا ، من بقية العلوم ، التى يجوز أن يبرع فيها من لا يزال فى سن الصبا ، أما علم الانتفاع بالحياة . فلا يبلغه الا من بلغ السن العالية ، ولم يتقنه أحد فى هذا العالم سوى بعض الأفراد من جهابذة الفلاسفة ، بعد أن نبذوا المال والجاه ، ورفضوا المناصب والمراتب ، واجتنبوا الملاذ والملاهى ، ليتفرغوا للاشتغال بمعرفة الحياة ، والاستعداد ليوم الممات ، وهما عندهم الغايتان المقصودتان من الفلسفة والحكمة ، فبهما يعرف الانسان كيف يعيش ، ويعرف كذلك كيف يموت . ولهم فى ذلك مذاهب متعددة ، وطرق مسلوكة .

والشرط الأول فى الانتفاع بالحياة ، هو أن يحفظ

الانسان أوقاته من الضياع ، فلا يجعل لاختلاسها من يده سبيلا . وصاحب العمر الطويل فى الحقيقة هو الذى لا يجعل أوقاته تحت تصرف غيره ، بل يجعل التصرف فيها لنفسه ، ويدرك قيمتها ، وما ينتفع به مما ينفع .

وإذا تأملت فى أحوال الناس وأطوارهم ، علمت أنهم لا ينتفعون بأوقاتهم الحاضرة ، ولا يتمتعون بها ، بل يحيلون التمتع بها دائما على المستقبل ، حتى إنك لترى الفاتح المنتصر يذهل عن الانتفاع بلذة الانتصار الحاضر ، ويحيل على المستقبل أمانى له وآمالا ، فيهمل التمتع بأعظم ثمرة حاضرة بين يديه وهى الانتصار ، ولكنه يحيل على المستقبل بلوغ أمنية أخرى أعظم من انتصاره ، وهى أن يستريح يوما من الأيام ، ويتمتع بالحياة وقتا من الأوقات .

ونرى بعض أرباب المناصب والمراتب التى يعتبرون الوصول اليها من أكبر ضروب السعادة فى الحياة ، إذا وصلوا اليها لم يبارحهم الملل من حاضرهم ، والتطلع الى المستقبل ، رجاء الوصول الى التمتع بالحياة . وبودهم لو كانت الأيام كلها جمعا وآحادا ، ومواسم وأعيادا ، يستريحون فيها من عناء المناصب ، ولكن الذى يقضى

حياته لنفسه ، ويدبّر أوقات يومه تدبير الاقتصاد حتى كأن كل يوم ليس وراءه يوم آخر يرغب فيه، أو يرهب منه ، هو الذى يذوق لذة الحياة ، ورغد العيش، ويكون اليوم الذى يأتى بعد يومه عمرا جديدا قائما بذاته تم له الانتفاع به .

وبخلاف ذلك فان ابيضاض الشعر ، وانحناء الظهر ، وسقوط الأسنان ، وكثرة السنين ، لاتدل على أن صاحبها عاش كثيرا ، وإنما تفيد أنه أقام على الأرض كثيرا .

وإذا تأمل حديد النظر فى هؤلاء الذين يحسدهم الناس من أرباب المناصب والمعالى ، والرتب العوالى ، ممن إذا تنزّلوا ونظروا الى الناس ، نظروا اليهم بمؤخر عيونهم ، وإذا منوا بالتسليم عليهم ، سلموا بأطراف أناملهم ، وجدهم كلهم أجراء قد أجروا أنفسهم ، وقدروا لأعمالهم ثمنا يستوفونه ، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو ثمنا . فتراهم يدا ملآى بالدراهم ، وأخرى فارغة من الزمن ، فاذا اعتراهم المرض يوما من الأيام ، أدركوا فيه قيمة الزمن ، وعرفوا مقدار الحياة، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ، على يد الطبيب لتقبيلها ، عساه أن ينقذهم من مخالب الموت ، ويرد عليهم بعض ذلك الزمن الذى لم يكن لديهم من قبل

المرض شيئا مذكورا . وانهم ليودون جميعا لو يفتدون بما فى العالم كله ساعة واحدة من الزمن ، أضاعوا أمثالها وهم لا يدرون قيمتها ، ولا يلتفتون الى قدرها ، فما هذا التضارب وما هذا التناقض ؟ ولو انكشف عنهم الحجاب ورأوا مابقى لهم فى جريدة أعمارهم ، لفزعوا أيما فزع من قلة الباقى ، ولأدركوا قيمة التدبير والتوفير فى أوقاتهم التى أضاعوها سدى وأنفقوها بدداً .

يجوز أن يملك الانسان الدنيا بحذافيرها ، ولا يجوز أن يملك ساعة فاتت من عمره ليردها ، « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . وترى الحياة تسيل بالانسان من منحدر عال إلى هاوية الموت ، « ومن يرد سبيل العارض الهطل » ؟ وقد ذهل المسكين عن كل هذا ، ونسى أن يصلح من أوقاته ، وكأنه فى سيرته يعمد إلى إصلاح حياته بفقد حياته ، فهو يعيش فى المستقبل فيفقد به الحاضر ، ويهمل مافى يده ليتمتع بما فى يد القضاء ، وإنك لتجد عامة من تراهم كهولا وشيوخا قد خرجوا من الحياة ونصيبهم منها لا يزيد على نصيب الأطفال والصبيان ، لادراك الشيخوخة إياهم دفعة واحدة ، بما ذهلوا عنه من

التمتع بأوقاتهم . فحالهم فى ذلك كحال المسافر ، بينما هو يتلهى فى قطع طريقه ، بسماع قصة أو قراءة حكاية ، إذا هو قد وصل إلى المكان الذى يقصده ، وقد فاتته معرفة ما كان فى طريقه ، والتدرج فيه لاشتغال نظره وفكره .

ومعلوم أن الحياة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فاما الماضى فذخر ممتنع لا تصل إليه يد الحوادث ، وأما الحاضر فسيال لا يكاد ينحجز ، وأما المستقبل فمجهول فى يد القضاء .

أما الماضى فأكثر الناس لا ينتفعون به لأن انصرافهم بكليتهم نحو المستقبل ، لم يجعل لهم مهلة النظر فيما خلفوه وراءهم . ولو فرضنا أنهم وجدوا مهلة ذات مرة لفتهم عنها خوفهم أن يمر على فكرهم مافرط منهم فيه مما يجدد الأسف والندم ، ولا يتذكر الانسان ماضيه إلا مجبراً لسوء تصرفه فيه وما ارتكبه من الخطأ والزلل . ولا يجلد على النظر فيه إلا من كانت أعماله الماضية موزونة بالقسطاس المستقيم ، صادرة عن سلامة الحكم ، وطهارة الضمير ، وشرف الأخلاق ، على أن هذا الماضى هو الكنز الوحيد الذى يملكه الانسان ويدخره من عمره ،

فيجب عليه دوام النظر فيه للانتفاع به ، سواء أكان ممتلئا بصور الحسنات ، أم مشحونا بصور السيئات ، أما صور الحسنات فيتذكرها الانسان ليستمتع ويتلذذ مرة بعد أخرى ، كصورة الأليف يحفظها الأليف عنده فيتمتع برؤيته بعد زواله . وهذه اللذة وإن كانت خيالية ، إلا أنها تمتاز عن الحقيقة بأنها تامة كاملة ، تقدر عليها ، وتتمكن من تملكها ، بخلاف حالتها وهى حقيقة فى الحاضر ، لما يلابسها من الآفات ، والعوارض ، والموانع ، التى ربما حالت دون تمامها ، وكمالها ، وضبطها ، فى الملك بهجوم المستقبل عليها . وأقرب شاهد على ذلك أنك تجد الكبراء من المنعمين المترفين إذا ارتد أحدهم مرة إلى ماضيه فتذكر أكلة حقيرة أكلها فى زمانه ، على شهوة للطعام ، أزرت لديه لذتها بما يكون أمامه من صنوف الألوان النفيسة ، فلا يفتأ يتشدق بها فى مجالسه . ولو كان للمسكين من أعماله الماضية ما يدخل فى الأعمال الصالحات ، لكان تذكره لملاذها المعنوية ، فوق ما يلقاه من لذة التذكر لتلك الأكلة المادية التى لم يبق منها إلا معناها أيضا ، وأما صور السيئات فينتفع الانسان بالرجوع إليها للعظة بها ، وليكون ما يجده من

الألم عند تذكرها بمثابة عصا المؤدب تمنعه من استئناف أمثالها . وأما الحاضر فهو قصير وجيز ، حتى ان بعض الحكماء الباحثين عن حقائق الأشياء ، ذهبوا إلى إنكار وجوده بالكلية لأنه سائل تيار ، وذاهب طيار ، لا يتصل الا ريثما ينفصل ، ولقد بالغوا فى ذلك حتى قالوا انك إذا نطقت بجملة « أنا موجود الآن » فهى غير صحيحة ، لأن مسافة النطق بها استوفت آنا من الزمن فى مضيه ، وهذا الحاضر لا يقف فى حركته ، كما لا تقف الكواكب فى حركاتها الأبدية لدوام انتقالها عن كل حيز ، وإن كان يخيل لك فى رؤية العين أنها ثابتة مستقرة فى مكانها .

واعلم أن هذا الحاضر الذى لا تقدر أن تثبت وجوده من سرعة حركته ، هو كل ما فى ملك الانسان بعد ذلك الماضى الذى شغلته المشاغل عن الرجوع الى التعلل به . فاذا أردت أن تعلم مقدار قصر الحياة فى اعتبار أولئك المشتغلين بدنياهم ، علمته من طول تطلعهم إلى طول الحياة كأنهم لم يعيشوا من دهرهم يوما واحداً ، فترى الشيخ الفانى وهو باسط كفيه إلى السماء يتضرع إلى الله أن يزيد فى عمره بضع سنين ، فاذا سألته عن عمره أخفى

عنك جزءاً منه . فيريد أن يغشك ، ويغش نفسه ، ويغش القدر ، ليكون عمره دائما محلا لقبول الزيادة ، فنحن والعمر على طرفى نقيض نسعى للبقاء . وهو يسعى للفناء .

ومما يضحك فى هذا الباب ، أن رجلا من كبار العلماء فى الزمن الماضى ، ولعله « أبو عبيدة » ، مرض مرضا شديداً ، فعاده أحد أصحابه وقال له عند مفارقته « أسأل الله لك الشفاء القريب من هذه العلة » فقال له وكيف يرجى الشفاء من مثلها بعد التسعين ؟ ثم مضت الأيام على ذلك وعوفى الشيخ من مرضه ، فكان أول عمل له فى بدء نقاهته أن سعى على قدميه حتى وصل الى بيت ذلك العائد ، وقال له أول كلامه « سألتك بالله أن تكتم علىّ ما أفضيت اليك به من مقدار سنى .

ومن هذا القبيل ، لنا صاحب كبير السن ، فاذا سألناه عن سنه تفلّت من السؤال بالحدة والغضب ، وإذا جرّ الحديث معه الى حساب مدة عشرتنا له وهى طويلة ، أحس الحبالة المنصوبة له لما يترتب عليها من الاستدلال على مقدار السن فيفر الى الخوض فى حديث غيره .

وإننا لنرى كثيرا من الواقفين على تعريف الزمن فى

سرعة حركته كما عرفنا ذلك يكفون أبصارهم عن تلك السرعة ، ويقفون بأعمارهم فى نقطة لا يحركهم منها مر السنين والأعوام ، فاذا وقف أحدهم على الخمسين مثلا لم يتزحزح عنها كلما سئل فى كل عام . ولا نكثر عليك من هذه الأمثلة فكلنا نعرف ذلك من أنفسنا .

وترى هذا الحاضر ، الذى يمر مر البرق ، ويجتهد الانسان فى تمديده وتطويله ، ولو فى الخيال . هملا مضاعا فى ايدى الناس ، تشغلهم المشاغل فيه عن التمتع به ، وكأنى بك تظن أنه كلما خلا الانسان من العمل والشغل فى أوقاته ، ازداد تمتعا بطيب العمر ، ومن أقام على البطالة والفراغ ، تملك أوقاته ، وصان أيامه . كلا - فليس الامر كما نظن ، فاننا نعد المقيم على العطل والفراغ أعظم ذهولا عن حاضره ، وأضيع عمرا من سواه ، وأشغل أوقاتا من غيره .

وكما أنك لا تحكم على من يشتغل بخصومة من الخصومات ، وواقعة من الوقائع ، أنه عاش لنفسه فى ذلك اليوم ، الذى أفناه فى ذلك الشغل ، كذلك لا تحكم على ذلك الفارغ العاطل الذى يقضى يومه بين مضاربة الديوك ،

ومسابقة الخيول ، وتزيين اللبـــاس ، وتحسين الزى ، والاشتغال بعبث الحديث ، ولغو القول ، إنه عاش لنفسه لحظة من الزمن فى يومه.

ولست بواجد فرقا بين طبقات الناس فى اشتغالهم بالوقت الحاضر، وذهولهم عنه ، بين هذا الذى يطوى يومه فى اشتغال الفكر ، باستخراج الذهب من النحاس ، أو استخراج أعداد الجمل من الألفاظ ، او المشتغل بتصفيف آنية بيته ، أو القائم على بناء قصره ، وبين ذلك الذى يحاول ما لاينال من عظائم الأمور ، ومصاعب الأعمال ، ابتغاء صيت يحوزه ، أو مال يقتنيه ، فكلنا فى الذهول عن الوقت الحاضر سواء المشغول منا والفارغ ، والسارى والسارب ، والقاعد والراكب ، أما المستقبل فخارج عن يد الانسان ، خاف عنه ، وهو فى خفائه عنا كخفـــاء النكت السوداء التى استكشفها «هرشل» فى قرص الشمس ، وفى بعده عن ملك يدنا كبعدها عنا ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غـــداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

ولكن من سوء حظ الانسان ، ونكد عيشه ، أنه ينسى

الماضى ، ويذهل عن الحاضر ، وينصرف همه كله الى هذا المستقبل المجهول ، فيعيش فى الوهم الباطل حتى تدركه منيته ، فترى الواحد منا إذا اضطجع فوق فراشه ، فتح لعينيه باب الخلود ، فيلج فى ما لا نهاية له من الآمال والأمانى ، وابتناء القصور والعلالى ، فى خياله بعد أن قضى نهاره فى هدم بناء العمر . فيقتل لذة العيش الحاضر ، ارتكانا على حياة المستقبل ، ويحرم نفسه التمتع باللذة القائمة ، انتظاراً للذة غائبة ، فيبيع عاجلا بآجل ، وحقيقة بوهم ، ولو أن مستقبل العمر كان مضمونا ، ونعيم العيش فيه محققا ، لكان من العبث ، وأفن الرأى ، ان يشتغل الانسان بشىء قبل حدوثه ، ويرمى لأجله بما فى يده ، من الشىء الحاضر هباء منثوراً ، فما بالك والمستقبل مجهول موهوم ، والعيش فيه مغيب مكنون ؟ ولا يزال الانسان هكذا هائما فى العيش الباطل ، حتى يدركه الأجل الحق فيموت ، وهو لم يعش بعد ، ولقد ألقت الحكمة على لسان قدماء الرومانيين تعبيرهم فى لغتهم عن الميت ، فيقال عاش فلان ، لا مات فلان . ولقد بلغ من تهالك الناس وتفانيهم فى التطلع الى المستقبل والتعلق به ، أن كادوا يصلون أعناقهم المشرئبة اليه بالعوالى والرماح ،

كما وصف المعرى حنين الابل الى أوطانها ، عند تطلعها إلى البرق اللامع من أفقه :

إذا غاب عنها سرها لو رؤوسها
تمد إليه فى رؤوس عوالى

أو كما قال أحد حكماء هذا العصر ، وقد افرط الناس فى التعلق بالمستقبل حتى اشبهوا حمير ايتاليا ، إذ يحتال سائق الحمار فى حثه على السير بشىء من الحشيش الأخضر ، يربطه فى طرف عود ، ويربط الطرف الآخر بين اذنى الحمار ليصير متدلياً امام عينيه ، فلا يزال الحمار دائبا فى الاسراع ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه .

ولقد يتجلى لك ذلك بأوضح بيان فى أهل السياسة ، وفى كثير من أرباب مرافق الحياة ، وأخص بالذكر منهم هؤلاء المشتغلين بأعمال البورصة ، فما أهون ايامهم الحاضرة لديهم حتى لقد يتمنى احدهم أن يسقط من عمره شهر - سبتمبر مثلا - ليأتيه شهر اكتوبر بالربح الذى قدره للاسعار فى خياله ؛ فيجيئه هذا الشهر المتمنى بغير ما حسب وقدر ، فيقع المسكين فى خسارتين ، خسارة عمره ، وخسارة ماله ، بعد أن اصفرّ وجهه اصفرار الذهب الذى يطلبه ، واضطرب

قلبه اضطراب أسلاك البرق التي ينتظر أخبارها . وقد روى عن «روتشيلد» ملك البورصة كما يلقبونه ، انه لا يكاد يجلس على مائدة طعامه ، حتى يقوم ليكلم سماسرته المرة بعد الأخرى ، فهل تحسب هذا الطعام الذي يطعمه متقطعاً طعاماً يلذه أو يمرى على جسمه ؟ وقس على ذلك اولئك المنهمكين في القمار والميسر ، فانهم إن ربحوا « وقليل ما هم » شيئاً من المال ، فقد أضاعوا الكثير من العمر ، بعد أن أفسدوا أمزجتهم باضطراب النفس ، وسهر الليل ، فتنتابهم العلل والأمراض ، ولا يحسون أنهم في الحياة - كان لي صاحب دخل عليه أهل قرابته في يوم عيد للتبريك ، فوجدوه يلعب الشطرنج فلم يحل حبوته . ولم يرد لهم سلاما لاستغراقه في اللعب ، فخرجوا غضابا ، واشتجرت بينهم العداوة ، ولم يقبلوا عذره بهذا الاستغراق الذي كان فيه من الموتى .

ومن هذا القبيل أيضا ، أولئك المرتزقون بالمرتبات الشهرية ، فانهم يتمنون انقضاء الشهر ، وبودهم لو ينامون نومة كهفية طول الشهر : ويقومون في آخره .

ومنهم الذين يتفرغون للانتظار ، فانك إذا تكلمت مع أحدهم ، وهو ينتظر أمراً من الأمور التفهة ، لم يفهم

عنك ما تقول، لموت حواسه بالانتظار، فهؤلاء كلهم قد ماتوا فى الحاضر، لتخيل الحياة فى المستقبل، فاذا جاءهم المستقبل وصار حاضرا أهملوه، وتركوه وتعلقوا بمستقبل آخر، فتذهب حياتهم وما كانت حياة بل موتاً فى الحقيقة.

وقد عاش الناس دهرهم بين اقصى المدنية، وادنى الهمجية، يتطلعون الى المستقبل، ويتلمسون علم الغيب ويسلكون لذلك طرقا جمة، ويأخذون بأسباب شتى، فما شئت من الكهانة، والطيرة، والفأل، وضرب الحصا، وتخطيط الرمل، ومنازل النجوم، وحساب الجمل، والزايرجة، والجفر، والودع، والورق، والتنويم والمندل، حتى بقايا القهوة فى الفنجان. دع الأولياء، والمشايخ، وأصحاب الكرامات، وسدنة الأضرحة والمجاذيب والبلهاء، لا فرق بين الناس فى الايمان والتصديق بذلك فتجدهم فيه سواء ذلك الذى يدين بالقرآن، ويتمسك بالايمان، فيحاول ان يطلع على الغيب بهذه الوسائل المختلفة، ويخالف مقالة قرآنه، وحديث نبيه بأن علم الغيب عند الله قد استأثر به دون الخلق ودون أنبيائه، وذلك الذى يدين بالشيطان فى زندقته والحاده،

فينكر وجود الخالق ويعترف بالميديوم ، ويكفر بعالم الغيب والشهادة . ويؤمن بعجوز البيت وشيخ السجادة .

وكلمتى اليك فى الختام : تمتع بيومك ، كأنه جميع عمرك ، ودع المستقبل يأتيك بما فيه و السلام .

السمعة والشرف

قال « شوبنهاور » الحكيم الألمانى : « يعلو القدر ، ويرتفع الذكر ، بين الناس من جهة المنصب ، والرتبة ، والسيرة وشرف الفضل . ولكل هذه الصفات فى اعتبار الناس ونظرهم واعتقادهم وجه صحيح ووجه باطل . فشرف المنصب هو عبارة عن إقرار الناس واعتقادهم بأن صاحب المنصب متمكن من الصفات والمزايا التى تؤهله للقيام بشؤون منصبه وتنبىء عن الكفاية والمهارة ، والاتقان ، المطلوبة منه لتأديته العمل بالضبط والتدقيق ، وعلى قدر ما تكون دائرة المنصب واسعة ، ونطاق العمل ممتدا ، يكون إجماع الناس على الأقرار لصاحبه بالامتياز فيهم بالمزايا ، والصفات التى جعلته أهلا لولايته ذلك المنصب فيرتفع ذكره ، ويعلو شأنه ، وتخضع النفوس لاحترامه . واجتماع هذه الصفات ، التى تؤهل للعمل ، فى صاحب المنصب السياسى هى كاجتماع الصفات اللازمة فى صاحب

المنصب الحربى ، فيكون جامعا لصفات القوة ، والشجاعة ، والاقدام ، ويكون مستعداً دائما لتفدية وطنه بروحه فى مواقف الدفاع عنه . هذا هو الوجه الصحيح فى المنصب ، فأما إذا ارتقى المنصب ، من لم يكن له بأهل ، ولم يحسن القيام فيه بواجب عمله ، وكان خاليا من كل مزية فيه ، فمقداره بين الناس ، واحترامه ، يكون للمنصب فى ذاته لا لشرف عمله فيه . فشرفه إضافى للمنصب لتجرده عن كل صفة ومزية فى العمل ، فاذا سقط منه سقط بين الناس ذكره ، وانمحى أثره ، ولم يترك لنفسه ما يذكر الناس به . وهذا هو الوجه الباطل فى شرف المنصب . وأما شرف الرتبة وهى الألقاب والعلامات ، فليس لها فى ذاتها قيمة بل قيمتها قيمة اصطلاحية بين الناس ، وشأنها شأن مصطنع موضوع فى مقابلة المكافأة بالمال ، فهى أشبه شىء بالسفاتج و « الحوالات » يحولها معطيها على الرأى العام ليوفى صاحبها أنواع الاحترام والتبجيل . وقيمتها تزيد وتنقص على مقدار ثقة الناس بمانحها ، وأبلغ تأثير لها يكون على عامة الناس الذين لا يدركون مزايا الأشياء إلا بحاسة السمع والبصر لبساطة عقولهم ، وضعف مداركهم ، ولما

كان أكثرهم لا يدركون إلا ماظهر لهم، وتجلى لأعينهم، ثم لا يلبثون أن يدركهم النسيان، كان كساء الرتبة وحلية الوسام كالاعلان على صدر صاحبها، يذكرهم بوجوب الاحترام له، ويقول لهم « اعلموا أن هذا الرجل الذى ترونه ليس من أشباهكم بل علا عليكم بمزية » ولذلك كان من الواجب على معطيها أن يدقق ويحقق عند الاعطاء، ويحرص فيه حرص التاجر عند وضع اسمه فى ذيل الكفالة، لأنها شهادة منه يوجب بها على الرأى العام أن يعترف بفضل صاحبها، وأن يخلى الطريق فى التقدم عليه. وهذا هو الوجه الصحيح فى شرف الرتبة والعلامات فاذا نالها من لا يستحقها، زالت قيمتها وضاع قدرها، ومهما نال الرجل منهم من الألقاب وتحلى بالعلامات، فانها لا تنيله من النفوس إلا احتراماً ظاهراً من ورائه ازدراء باطن، وكان المعطى كالبائع يضع على زجاجة الخل ورقة بأنها زجاجة عطر، وهذا هو الوجه الباطل فى شرف الرتبة.

وأما شرف السيرة فهو قيمة قدرنا فى أفكار الناس، وحقيقة هذه القيمة حسن المعاملة للناس، واحترام

حقوقهم ، واجتناب الظلم ، والابتعاد عن ارتكاب الاثم فى سبيل منفعتنا . وهذا الشرف معرض دائماً للزوال ، ويكفى أن يصدر عن الانسان عمل واحد يعيبه فيمحو ما تقدم من محاسن سيرته ، كأن يرتكب الانسان جناية يستحق عليها العقاب، بشرط أن يكون الحكم عليه قائما على منهاج العدل . وأما شرف الفضل الذى ينتج عنه حسن الذكر وجمال الصيت فهو ما يفضل به الانسان آخر فى نفسه وهو وشرف السيرة أخوان. إلا أنهما يفترقان فى أن هذا يزول ويفنى ، وأن ذاك يدوم ويبقى . وفى استطاعة كل إنسان أن يتناول شرف السيرة ولكن ليس يمكن كل إنسان أن يحصل عل شرف الفضل ، لأن الفضل فى الناس قليل نادر لا يكون إلا مستثنى فى أفرادهم ، وهذا الشرف يتكون لصاحبه من وجهتين ، من وجهة الآثار الأدبية ، ووجهة الأعمال المادية ، ولكل منهما منافع وفوائد ، ومصاعب ومشاق ، خاصة بها لا تفارقهما ولا تزايلهما والفرق الكلى بينهما أن الآثار الأدبية تبقى بنفسها على أصلها خالدة عن الدهر ، وأن الأعمال المادية لا يبقى منها إلا ذكراها وحده ، مهما كان العمل عظيما ، وشأنه رفيعا ، ثم

تتضاءل ، وتضمحل ويمحوها الزمن من الوجود بمروره عليها، إن لم يقيدها التاريخ ، فيرويها للأجيال على التحريف والتحويل ، كما نرى ذلك واضحا بين أهل الفتوحات من القواد والملوك وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء ، ولا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة، والكتب المسطورة ، ثم إنه لا بد للأعمال المادية من علل وأسباب تتولد عن ظروف الأحوال، وأحكام الأزمان، لا يتم تكوينها إلا بها ، فشرفها وحسن الذكر بها ، ليس هو عنها فى ذاتها بل لما كان حولها من الظروف والحوادث التى تكسبها قيمة وتكسوها رواء ، وهى من جهة أخرى من الأمور العامة التى تتناولها جميع الأفكار ، وتحيط بها جميع الفهوم ولحسن الاتفاق فيها شأن كبير .

واما الآثار الأدبية فلا حكم للحوادث عليها، ولا تأثير للظروف فيها. ولا يتعلق أمرها بغير صاحبها وحده ، وهى لا يعتورها نقص. ولا يعتريها خلل، بل تبقى ما بقيت على حالتها الأصلية التى وضعها عليها الواضعون ، وإنما الصعوبة هنا فى تقديرها بين الناس حق قدرها ، ووضعها فى المنزلة التى تستحقها . وليس يخفى أنه كلما كانت الآثار رفيعة

جليلة فى الأفكار ، قل عدد من يحيط بها . ويتأهل للحكم عليها . وقد لا يوجد فى كل وقت من يكون أهلا لتقديرها ، وقد يوجد ، ولكنه يميل فى حكمه الى الجور ، وينحرف به الهوى عن الانصاف ، ولكن مع ذلك لا بد أن يصل إليها حقها فان لم تنله فى عصرها الحاضر نالته فى الأعصر اللاحقة ، بين أهل الخلو عن الغرض من ذوى الرأى والحكم ، وارباب المعرفة والفضل ، وبعبارة أوضح ، إذا هى لم تحصل على الانصاف من أعضاء المحكمة الابتدائية ، المعاصرين لها ، حصلت عليه من محكمة الاستئناف التى يؤلف الزمن أعضاءها من نوابغ الأفاضل ، الذين يجرد بهم واحدا فى إثر واحد ، ويمكن لهم الحكم بفضل تلك الآثار ، بعد مرور الأيام عليها ، وتوالى الدهر ، فحقها مضمون على كل حال . فأما إذا وصل صاحبها الى حسن الذكر ، وعلو الصيت ، ونال حقه فى حياته ، فلا يكون ذلك إلا من باب حسن الاتفاق ، ومساعدة الأقدار ، وتوافق الظروف ، وعلى أى حال فان حسن الذكر كما يقول عنه أحد القدماء من الحكماء لا يفتر عن ملازمة الفضل ، ملازمة الظلال للاجسام ، وهو مثلها فى حركتها

وسيرها فتارة يكون من أمامه ، وتارة يكون من ورائه ، فاذا سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك ، ولم يشهدوا لك بما أوتيته من الفضل ، لما يكون بهم من الحسد والبغض ، أنصفك من يأتى من بعدهم ، وردوا اليك حقك بخلوهم من كل هوى وغرض »

وهذا القول من هذا الحكيم القديم يدلنا أيضا على أن السعى فى انكار ما ينفع الناس من الفضل ، والانتصار لما يضر من الجهل ، داء قديم فى نفوس أهل النقص والعجز من كل زمان ، كما هو الحال فى عصرنا الحاضر . هذا وكلما كان شرف الفضل وحسن الذكر بطىء الانتشار ، كان رسوخه باقيا على الدوام كالشجرة التى تنمو قليلا قليلا وتتأثر جذورها ، فتعلو فروعها ، وما يكون منه سريع الانتشار سهل الحصول فهو كالنباتات التى تزرع وتقلع فى فصول العام . وأما القسم الباطل منه الذى لا يقوم على غير أساس فهو كالحشائش الضارة بين الزرع تظهر وتنتشر فى لمحة واحدة ، ثم تصبح هشيما تذروه الرياح ، وعلى قدر ما يكون صاحب الفضل مجهولا فى عصره ، غريبا فى قومه ، فانه يكون معروفا بين سائر الأجيال الآتية ، مذكورا بين أهلها ، بحسن الذكر ، وجميل الثناء ، وأمامنا تاريخ

الفنون والآداب ، يشهد لنا بأن أعظم ما أتى به الفضلاء والعلماء من نوادر الآثار ، لم يصادف من أهل زمانهم قبولا ، ولم ينل لديهم استحسانا ، بل قابلوه بما شاءوا من الاغفال والاهمال ، حتى جاء بعدهم من اتسعت أفكارهم للاحاطة به ، واهتدوا بعلو أنظارهم وحسن معرفتهم الى تقدير قيمته ، فحكموا لهم بالاحسان ، وأنزلوهم فى أعلى منازل الاجلال والاعظام ، والسبب فى ذلك أن الانسان لايمكنه أن يحط من الأشياء الا بما يناسب قريحته ويجانسها ، ويكون وفق درجتها فى المعلومات ، فلا يناسب أرباب القرائح ذات الجمود الا الأشياء الساقطة ، ولا تتسع أذهان العامة إلا للامور التفهة ، ولا يوافق أهل الغباوة إلا حديث الخرافة ، ولا يطيق الفكر القاصر العاجز ، أن يتصور مايصدر عن الفكر الواسع الكامل ، وانما تأخذ القرائح والفهوم ، ماتتسع له من المعارف والعلوم ، والقول الصحيح لايستوى فى الفهم السقيم . ويقول الشاعر « جيلبير » فى هذا الباب مامعناه : « كم رأينا من صفات حميدة ، وآثار مجيدة لايحلها الناس فيما بينهم محل الاستحسان ، ولا ينظرون اليها بعين القبول ، وكم اجتمعوا على نبذ الحسن ، وأخذ القبيح

لافرق فى الزمان والمكان ، فترى ذلك واقعا فى كل أمة ، وفى كل موطن، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه. فهل لهذا الداء يوما من دواء يشفى الناس منه ويرفع البلاء عنهم ؟ ماأظن أن لهم غير علاج واحد وهو أن ينقلب الأغبياء فى العالم أذكياء، ويصبح الجهلاء حكماء، ولكن كيف يتيسر الانقلاب إلا بانقلاب الخلقة،وتغيير الفطرة،وذلك غير ممكن الحدوث ، فلم يبق إلا الصبر والاحتمال لاولئك الذين لايحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس لامن جهة الفكر والعقل، وهم لصغر نفوسهم لايزالون يرفعون كل جاهل سافل على كل عالم فاضل » . وزد على ذلك أن انتشار الذكر بين الناس بفضل الرجل الفاضل يحط من قدر معاصريه،ويحط من شأنهم ، فهم يسعون مااستطاعوا فى كتمان فضله ، وانتقاص منزلته حتى ، لاتعلو على منزلتهم ولا تغلب على شهرتهم، ولا يروق لمن كان حاصلا منهم على شىء من حسن الذكر أن يشاركه فيه خلافه ويزاحمه فيه نده .

ومن هنا يتضح لك الفرق العظيم بين الحصول على اعتراف الناس بشرف السيرة، لأنه لسهولة طريقه، وكثرة اشتراك الناس فيه لا يكون محلا للتحاسد والتنافر ، وبين

الحصول على حسن الذكر ، للفضل الذى تمتاز به النفوس على سواها ، لما فى اعتراف الناس بعضهم لبعض بالفضل الذاتى من الغضاضة والكراهة . وكل انسان منهم قادر على أن يكون له سيرة حميدة لا يحسده عليها غيره ، ولكن لا يقدر كل انسان أن يكون له مثل فضل الفاضل ، فهو لا يصبر على اشتهار ذكره بأمر لا يستطيع أن يشاركه فيه ولا يرضى بأن يقر له بالمزية عليه فى حال من الأحوال .

وإن كان الحصول عل حسن الذكر بين الناس بفضل النفس الذاتى هو من أصعب الأمور وأبعدها منالا ، إلا أن دوام بقائه والمحافظة على وجوده ، من أيسر ما يكون ، وهذا بخلاف شرف السيرة الذى يحصل عليه كل انسان بأسهل طريق ، ولكن يصعب بقاؤه وطول المحافظة عليه ، لأنه يزول فى الحال عند ارتكاب أى معيبة ، واقتراف أدنى جريمة كما ذكرنا فى سابق القول ، ولكن شرف الفضل لا يمكن زواله أبداً لأنه قد تم وكمل بمجرد حدوث الأثر الذى ظهر من فضل صاحبه ، ولو أنه اقتصر على هذا الأثر وحده ولم يتبع الأثر بأثر مثله . فاذا رأيت لأحد الناس ذكراً شائعاً ، وصيتاً ذائعاً ، قد انمحى أثره من الوجود ، وكان

عمره قصيراً عن عمر صاحبه، فذلك هو الذكر الباطل الذى لم يستحقه صاحبه بفضل فى ذاته، وإنما ناله من جهل الناس وسوء تقديرهم لقدره، وقبح اغترارهم به. ولما كان حسن الذكر ليس هو إلا عبارة عن صدى للفضل وظله، وكانت قيمة الاحسان فى نفسها خيراً من قيمة الاستحسان بين الناس، فرغبة الفاضل هنا لا تتجه لحسن الذكر الذى يتولد عن الفضل بل لذات الفضل الذى ينشأ عنه حسن الذكر، والحظ كله فيه سواء انتشر صداه، أو انزوى خبره، فالنفس تسعد به لذاته على كل حال، لأن أحسن الأحوال للعاقل أن يكون حسناً فى نفسه، والذى يهمه فوق كل شىء حسن صورته فى قلبه، لا حسن صورته فى أفكار الناس، وجمال الفضل على خلاف جمال الوجه، الذى تكون فائدته والتمتع به لأنظار الناس وحدهم دون صاحبه فان فائدته والتمتع به يكون لنظر صاحبه وان لم يشاركه بقية الناس فى النظر إلى هذا الجمال فاذا فرضنا أن صاحب الفضل لم ينل بين الناس، ما يستحقه من شرف الذكر ورفعة الصيت فانه قد نال أهم شىء لديه وهو الفضل فى ذاته.

***

وأما الذكر الباطل فهو الذى يقوم على غير فضل فى نفس الانسان، وحظ صاحبه منحصر فيه دون الحظ من الفضل، ولكن لا يلبث أن تنكره منه نفسه، وتسأمه لقيامه على غير أساس فيه، وربما اعتراه بالرغم عن تبجح نفسه مثل الدوار فى صعوده الى تلك المدارج التى لم يكن أهلا لارتقائها، أو يحدث فى نفسه شك بأن ما حصل عليه من الذكر إنما هو تمويه باطل، وان نفسه فى عينه تماثل النحاس المموه بالذهب، فهو فى خوف دائم، وقلق شديد، أن ينكشف الطلاء ويزول التمويه، ويسقط الى الدرجة التى يستحق النزول اليها

وأما حسن الذكر الصحيح الذى يبقى على مدى الأجيال الآتية، فقل أن يصل رنينه الى أذن صاحبه، ومع ذلك فان الناس يعتبرونه سعيداً ذا حظ عظيم يحسد عليه، لأن له فى اتساع فكره، وعلو مداركه، واشتغاله بما هو مطابق لطبيعته من وجوه الفضيلة، وما يحلو له فى نفسه من ممارسة ذلك العمل، فى ذلك كله ما يجعله فى نفسه سعيداً، وأساس سعادته قائم أبداً على ما احتوته نفسه من سعة الفضل والذكاء، الذى يظهر أثره من مؤلفاته، ويستجلب به استحسان أهل العصور اللاحقة، فاستحقاق حسن الذكر بالفضل، هو المكافأة التى

يكتفى بها الفاضل وحـــدها فى عمله ، وأما نيل الرجل الفاضل لحسن الذكر من أهل عصره وزمانه ، فهو شىء نادر يتعلق بظروف الأحوال ، واختلاف الحوادث ، لأن جمهور الناس لا يصلون بمداركهم الى تقدير قيمة الفضل وانما يتبعون فى ذلك آراء الغير من أهل الدراية ، وأرباب المعرفة والحكم ، فهم ينطقون بحسن الذكر له على التقليد وفى كل مائة شخص تسعة وتسعون ينطوون فى ذلك على رأى شخص واحد . وحسن الذكر بين المعاصرين وانتشار الصيت فيهم ليس له إلا قيمة ضعيفة عند صاحب الفضل ، مهما كان عددهم عظيما . وهو لا يرى فى انتشار اسمه بينهم الا صدى أصوات معدودة اقتدوا بها واتبعوا أثرها ، ويكون حاله فى هذا الباب مثل حال المغنى الذى يرى بعينه اشارات الاستحسان من الحاضرين ، ثم يتحقق بعد ذلك أنهم كانوا كلهم صم الآذان وانهم لم يشيروا باشارات الاستحسان إلا متابعة لواحد فيهم صحيح السمع من دونهم .

وفى هذا ما يبين لنا أن أحسن الذكر الذى نراه لكثير من المعاصرين بيننا قل أن ينقلب إلى ذكر مخلد يبقى على الدهر ، وقد أشار « دالامبير » إلى ذلك فيما وصف به هيكل

الذكر المخلد حيث قال : «إن هـــذا الهيكل لا يسكنه إلا الأموات الذين لم يدخلوه فى حياتهم وجماعة من الأحياء لا يلبثون أن يطردوا منه عند موتهم » وعلى كل حال فان الرجل الفاضل ، لا يدرك فى حياته الوصول إلى حسن الذكر الصحيح، الذى يبقى على الأجيـــال إلا فى سن شيخوخته ، وعند آخر عمره ، وإنك لترى ذلك واضحا فى صور كبار الرجال وتماثيلهم التى حفظتها لنا الأجيـــال الماضيـة حيث تجدهم كلهم شيوخا بيض المفارق وعلى الأخص تماثيل الفلاسفة والحكماء . » بقى علينا أن ننظر فى الطريق التى توصل إلى حسن الذكر الخالد من جهة العلوم وهو ينقسم إلى قسمين . قسم ينصرف إلى العلوم الخاصة ، وقسم ينصرف إلى العلوم الشائعة ومقـــدار انتشار الصيت يختلف فيهما باختلاف العلوم فيكون متسعا بسعتهـا ، ومحدوداً بحـدها . فلو نظرنا مثلا فى عمل عالم امتاز بعمله فى حل المسائل الجبرية والرياضية ، فان ذكره يكون محدودا ومنحصرا فى طائفته وأهل فنه ، الذين يدركون وحدهم دون بقية الطوائف فضل عمله وعددهم فى كل زمان عدد محدود ، ودائرة حسن الذكر متصورة عليهم

أما إذا كان مايشتغل به الرجل الفاضل من العلوم أمراً شائعا يتصل بمدارك الناس كافة مثل الاشتغال بعلم الأخلاق، والمباحث النفسانية، واختلاق الطبائع والغرائز، واستنباط الحقائق والأصول فيها، فان ذكره يكون منتشرا، وصيته ذائعاً، على قدر اتساعها وقدر ماتفرد به من المزية فى ذلك على غيره من أهل عصره، ثم يدور مع الزمن دورة الخلود والدوام. والطريق إلى ذلك ليس بسهل لأن مثل هذه العلوم الشائعة يكثر عدد المتناولين لها والمشتغلين بها، فالتفرد بينهم بالامتياز عليهم يحتاج إلى تعب عظيم ولا يتمكن منه إلا صاحب العمل النادر والفضل الباهر.

***

وصاحب الفضل الدائم الذى ينتهى بحسن الذكر لا بد أن يكون محسودا بين الناس، مبغضاً، والحسد على الذكاء والفضل أشد أنواع الحسد فى ما سواه من بقية المزايا التى يتفاضل الناس بها فى طبقاتهم، مثل المال، والجاه، والأحساب، والأقدار، لأنه أعلى المزايا درجة، وأعظم الأقدار قدراً فقد قال «فردريك الأكبر»: «إن مقام

النفوس الممتازة بالفضل فى مقام الملوك وفى ارتفاع درجتهم» قاله حين امتعض رئيس حجابه من جلوس «فولتير» - الكاتب الفرنسى الشهير - على مائدة الملوك، وأبناء الملوك، فى دعوة صنعها له الملك، وأنكر امتيازه بذلك، على وزراء الدولة، وقواد الجيوش، وكبراء الحاشية، الذين جلسوا على مائدة رئيس القصر، وكل طبقة من طبقات أهل هذه المزايا لها من حولها عدد عظيم من الحساد، يتحرقون فى أنفسهم غيظا وتضطرم صدورهم نيراناً، على كل فرد من أفرادها لا يفترون أبدا ولا يسكنون عن السعى والكد، ليبينوا للمحسود بكل طريقة كانت إن كان ممن لا يخافونه ولا يتقونه أنهم ليسوا بدونه درجة. وأنه لا يمتاز عليهم بشىء، ولكن شدة تكالبهم وتهالكهم على هذا المسعى تنبىء بنفسها على ضد هذا الرأى بينهم. وأحسن الطرق التى ينبغى للمحسودين أن يسلكوها مع جماعة الحاسدين هى أن يتباعدوا عنهم، ويقطعوا كل اتصال بهم، ويقيموا لهم فى وجوههم من دونهم سداً، يضمن لهم كل إنفصال عنهم. فاذا لم يكن عمل ذلك فى الاستطاعة، وجب على المحسودين أن يتحملوا كل

مما يصدر عن أهل الحسد فى حقهم من القدح ، والذم ، وفنون السعاية والوشاية، وما شابه ذلك بكل اغضاء وسكون فتنضب تلك الموارد فى أيديهم، وتخمد نار الحسد بطبيعتها فى صدورهم.

والحسد بين الناس داء قديم، لم يخل منه زمان ولا مكان،ومن قبيح الاغترار،وخطل الرأى، أن يتصور صاحب الفضل والذكاء، أن ظهور فضله بين الناس يقابل منهم بحسن القبول،وانشراح الصدور، ولطف التأهيل والترحيب، بل لابد أن يعتقد أنه يثير فى قلوب العدد الأكبر منهم ثائرة العداوة والبغضاء،التى يكون أثرها فيهم شديداً بمقدار اضطرارهم إلى عدم الافصاح عن أسبابها، وحجز النفس عن البوح بها، وبذل الجهد فى سبيل كتمانها واخفائها.

ولزيادة البيان والتفصيل لذلك ، يجب أن نتصور اثنين من الناس يتخاطبان فترى فى الحال أنه إذا أدرك أحدهما فى صاحبه علوا فى المدارك ، وارتفاعا فى الذكاء، اعتقد فى نفسه على البداهة من غير تدبر، ولا

تفكير أن مخاطبه يرى فيه، ويحكم عليه، بتلك الدرجة بذاتها في انحطاط الفكر، وضعف الذهن، بالنسبة اليه، فينشأ فيه عن هذه المعارضة والمباينة بينهما رذيلة الحقد والبغض، ثم تستعر فيه جذوة الكراهة والنفرة، ولذلك قال «براشيان»:

— «إذا أراد الانسان أن يعيش في راحة وسكون بين الناس، فالطريقة الوحيدة لذلك هي أن يظهر فيهم مرتديا بجلد أضعف الحيوانات فطرة وأبسطها إدراكا». وحينئذ فالظهور بالفضل، والذكاء، بين الناس هو عبارة عن الايماء إليهم من طرف خفي باللوم والتعنيف على قلة جدارتهم، وسوء غباوتهم. وصاحب النفس الناقصة لا يملك نفسه أن تغضب وتسخط، عند مشاهدتها لصاحب النفس الفاضلة، وهو مدفوع بدافع هذا الحسد. وليس يخفى أن لذة الاعجاب بالنفس، هي فوق كل لذة عند الانسان، ولا يحق له أو يسهل عليه أن يرضى عن نفسه إلا عند مضاهاتها بنفوس الناس، ولا مزية عند الانسان في أمور الدنيا كلها، أعظم في عينه من مزية الفضل والذكاء، ولا زهو له في نفسه إلا من جهتها لامتيازه بها، وفضله على سائر الحيوان. فمن مكروه الاقدام وسوء الحذر، أن تتظاهر

فيهم باعتلاء درجتك فى الفضل والذكاء، خصوصاً إذا كان ذلك على أعين الناس، وبمشهد الجموع، فان ذلك يهيج فيهم حب الانتقام، ويؤرث فى صدورهم نيران التشفى، فيلجأون فى ذلك إلى أسباب السب والثلب، ويخرجون من دائرة التفاوت فى الفضل والذكاء، إلى دائرة الارادة النفسانية التى نحن كلنا فيها سواء. فاذا كان لصاحب الغنى، أو لصاحب الجاه، اعتماد على احترام الناس له، ورجاء عظيم فى توقيره بينهم فان صاحب الفضل والذكاء لا ينبغى له أن يؤمل فيهم مثل هذا الرجاء. وان أحسن حظ لراحته، وأجمل حال له، أن يقيم فيهم على قلة الانتباه له، وعدم الالتفات إليهم، وبخلاف ذلك يكون فضله أمامهم على الدوام نوعا من أنواع التوقح والتبجح. ويكون فى أنظارهم مثل من تملك شيئا من دونهم بطريق الغصب أو الاختلاس، ثم يجترىء على التظاهر به والتفاخر، فبذلك يضمر له كل إنسان فى نفسه أن يلحق به شيئا من التحقير، يتربص له كل فرصة، وأقصى ما يمكن صاحب الفضل الوصول إليه بينهم بكثرة التلطف، والتواضع. أن ينتزع منهم شيئا من العفو والصفح عن ذنبه فى ارتفاع مداركه وعلو فكره،

مثل انتزاع الصـــدقة من أيديهم . وقد قال السعدى فى فى « الكلستان » : «اعلم انه يوجد عند الرجل الجاهل من العداوة والكراهة للرجل الفاضل مايربى أضعافا مضاعفة على كراهة الفاضل للجاهل،فان الجهل المحض والانحطاط فى الفكر يستوجب الرأفة والشفقة لا الكراهة والعداوة».

وإذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء، ألاّ يلتفتوا إلى حسد الحساد ولا يكترثوا بهم ، ولا يثير فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء ثائرة الحقد والغيظ ، بل تكون معاملتهم لهم دائما معـــاملة الشفقة والمرحمة، فان أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلا عداوة لهم وكراهة،ولا يميلون أبداً اليهم ، ولا يأنسون إلا بمن يكون على مثالهم، أو أدنى منهم طبقة،فى قلة الفضل، وضعف الذهن،وهم يفضلون فى المعـــاشرة والمصاحبة والمخالطة، أهل الغباوة والجهل كالمرأة المتوسطة فى الجمال لا تميل فى المعاشرة والمصاحبة إلى من تكون أجمل منهـا خلقة، وألطف منها شكلا، بل همتها على الدوام أن تختار لها فى ذلك،من كانت دميمة الوجه ، مشوهة الخلقة، ليتجلى للانظار فضل حسنها عليها بالمقارنة والمضاهاة : فكل امتياز

فى الرجال بالفضل والذكاء، يدعو أهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه، وإظهار البغض له، وافتراء المفتريات عليه، وبذل الجهد فى نسبة النقائص والمذام اليه، وكل امتياز فى النساء بالحسن والجمال يدعو إلى التباعد والتنافر بينهن، ويهيج الحسد والبغض فيهن، فان مزية الحسن والجمال عندهن، كمزية الفضل والذكاء فى الرجال. ولهذا السبب ترى أهل الفضل فى كل زمان لا ينالون حظهم، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس، ولا تتقدم بهم الحال الى إرتقاء المناصب، وعلو الدرجات التى لا تنال إلا بالتساعد والتعاون، وسعى الناس بعضهم لبعض، ولا يتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس، ويستميلهم اليه بما يرضونه من أنواع التملق وصنوف التزلف. وأصحاب الفضل، كما علمت، قوم لا يصبرون على ذلك، ولا يسلكون سبيله، ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة، ولا يضعونها فى مثل هذا الموضع. فان إحساس النفس لفضلها يحدث فيها من الترفع والاباء ما يبعد بها عن هذه المواطن، ويسمو بها عن حطة هذه الطرق والوسائل، وإنه ليعز على صاحب الفضل أن يشهد على نفسه بفضل الجاهل عليه،

ليستميله إلى مساعدته، ويجتذبه إلى معاونته، بما يروق فى عين الجاهل من ارتفاع مقام الجهل على الفضل، ولا بد أيضاً فى استرضائه للجاهل من إنكار فضله بنفسه، وإخفاء ذكائه عليه، خشية أن يتولد فى نفس الجاهل من ظهور هذه المزية فيه، ما يتولد من النفرة والاشمئزاز منه، وفى ذلك ما لا طاقة للنفس الأبية بحمله، وإنما يقوى على إحتمال هذا المضض وهذا الصغار، من كان ناقص الحظ من الفضل، منخفض الدرجة فى الذكاء. هذا هو السبب الاكبر فى تقدم أهل الغباوة والجهل، على اهل النباهة والفضل، فى كل عصر وجيل، فانهم لجهلهم وغباوتهم، يخفون على الناس، ولا يثقلون بمزية عليهم، كما أنهم يتحملون كل تفاضل، وتطيب نفوسهم لسلوك طرق النفاق والرياء، واستعمال افانين التملق والخضوع، فيستحسنون ماليس بحسن، ويحترمون ماليس يحترم، فتميل اليهم القلوب، وترغب فيهم النفوس، وينالون من المساعدة والمعاونة بين الناس، ما يصلون به الى علو المنزلة، وارتفاع الدرجة. وليس ذلك بقاصر على المناصب والمراتب فى الحكومات، بل تراه شائعا فى جميع المقامات والرتب، التى تتبارى اليها النفوس، وتشرف

بها الأقدار مثل الرآسات الأدبية، والعلمية، وما شاكلها.
وإننا لا نزال نرى مجـــامع العلوم « أكاديمى » آهلة بالاعضاء الذين لم يؤهلهم الى الدخول فيها فضل لهم باهر، أو ذكاء نادر، وإنما أوصلهم اليها ضعف شأنهم فى الفضل والذكاء، وقوة استعدادهم فى اجتذاب القلوب، واجتلاب المودات، بحبائل التلطف والتزلف، ووسائل المداهنة والتملق، وقل أن يرتفع صاحب الفضل الكامل مثل ارتفاعهم الى تلك الجمعيات إلا بعد طول العناء، وشدة المناضلة فى أواخر سنى العمر، وقرب انتهاء الأجل.

وجملة القول فى هذا الباب أن الانسان لايمكنه أن يدرك ما هو فوق طاقته، وما هو خارج عن قدرة تصوره، والحكم على الشىء فرع عن تصوره، بمعنى أن الرجل لايستطيع معرفة الفضل فى صاحبه، اذا لم يكن له نصيب ظاهر فى الفضل، ولا يقدر له قيمة، إلا على نسبة اتساع فكره أو ضيقه فى هذا الباب. فاذا كانت دائرة ذكائه ضيقة، ومنزلته من الفضل ضعيفة، لم يؤثر فيه ولم يفعل فيه كل ما يمكن أن يجتمع للرجل الفاضل من صفات الفضل والكمال، ولم يحس به أدنى احساس ولم يبصر فيه

إلا ما عساه أن يكون به من التهاون والافراط فى بعض الصفات الشخصية التى تكون كالنقائص والمعايب ، فى أنظار الجهلاء فيقفون عند حدها ولا يدركون فيه ماسواها من أجل المزايا النفسانية فى الفضل والعقل ، والنباهة والذكاء ، بل تكون أمام أنظارهم كألوان أمام العميان ، ولا يبصر نور الفضل إلا من استنار منه فكره ، وعظم فيه نصيبه ، ولا يعرف الفضل إلا ذووه .

كدر النفس

لاجدال فى أن الكدر والغم من أشد أدواء النفس، وأعظم أمراضها، فهو اذا أنشب أظفاره فيها، لم يلبث أن يمزقها تمزيقاً، ويشتتها تشتيتا، فترتبك على الانسان معيشته، وتضطرب عليه حياته، حتى يرى الدنيا فى عينه أظلم من الدجى، وأضيق من سم الخياط، وتصبح نفسه وكأنها سمكة الحبر تسوّد بما تمجه من جوفها كل ماحولها، أوكأنها تلبس شارة السواد. كما يلبس الجسم ثوب الحداد.

ولما كان هذا الداء عصىّ العلاج، أبىّ المراس، وجب أن يعمد الحكيم فى علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المختلفة، فللمرض الشديد الدواء الشديد، وأول شرط فى نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه. ولا نفع لما نعرضه عليك هنا من علاج الأكدار، ان لم تأخذ فيه أولا بطول المواظبة على التدبير والتفكير، وشدة الامعان، وتكرار

النظر ، وكثرة التمرن ، والتدرب حتى يسرى العلاج فى النفس فتتغذى به .

اذا كان الانسان يقدر بقوة التمرن والتكرار ، أن يصدر عنه من الأفعـــال العجيبة الجسمانية والنفسانية مايدهش الألباب ، مثل ذلك ، الذى كان يحمل ثورا ويعدو به أميالا فى أعياد أثينا القديمة ، ومثل الذى يلعب فى ثمانى رقاع للشطرنج فى آن واحد ، وهو غائب عنها ، مشتغل بلعب آخر من ألعاب الورق فى الدنيا الجديدة — فما أولاه بأن يروض فكره ، ويمرن نفسه على الأخـذ بأحكام الفضيلة ، حتى يصل إلى الغاية المقصودة منها ، وهى « السعادة » ولـكنك إذا قرأت ولم تتدبر ، ونظرت ولم تتبصر ، وحفظت ولم تعتبر ، لم تنتفع بكثرة المطالعات ، وطول المعالجات .

ولاخفاء فى أن البدن مرتبط بالنفس ، كما أن النفس مرتبطة بالبدن ، وأن مرض النفـس يؤثر فى البدن فيمرض البدن ، ومرض البدن يؤثر فى النفس فتمرض النفس . وأول مراقى السعادة النفس « السليمة فى الجسم السليم » . ولنبدأ بالـكلام عن صحة الجسم التى تتوقف

عليها صحة النفس . فيلزم لصحة البدن ، أن يجتنب الانسان كل إفراط فى الشهوات ، وكل ما من شأنه أن يورث اضطرابا فى الجسم ، ثم يأخذ بشروط الصحة ، من استنشاق الهواء النقى فى الشمس المسفرة ، والاستحمام بالماء البارد ، وأن يتعهد إفراز الاخلاط الزائدة عن القانون المطلوب ، وأن يكثر من الحركة ، فان الحياة فى الحركة .

وإنك إن نظرت الى البدن من داخله ، وجدت ما فيه من الاحشاء والاعضاء فى حركة مستديمة ، فترى القلب يقذف مجموع ما فى الجسم من الدم إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة فى ثمان وعشرين ضربة من ضرباته . وتجد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة البخار ، وتشاهد الأمعاء فى إنبساط وانقباض ، وفى الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص والافراز فى آن واحد ، على الدوام ، وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات القلب ، وعند كل إستنشاق للنفس . فاذا قلت حركة البدن من ظاهره كما هى الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفاهية والسكون ، لم يتم التوازن بينها ، وبين الحركات التى فى

باطنه ، فيقع الجسم كله فى اختلال ، لأن حركة الباطن تحتاج إلى المعاونة بحركة الظاهر ، وتتطلبها ليستقيم الوزن ، ولا يختل نظام الجسم والنفس معا . وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدره يتميز بالغيظ ، ويغلى بالحقد ، فاذا دام على هذا السكون لم تأمن عليه مغبة ذلك الاختلال ، ولهذا فانهم ينصحون للانسان إذا غضب أن يأتى بحركة من بدنه ، وفى الحديث الشريف «إذا غضب أحدكم فليتوضأ» وفى كلام «ارسطو» «فليستحم بالماء البارد» وترى الاشجار لا تسير سيرها الطبيعى فى النمو إذا لم تعرضها للهواء لتهتز أغصانها فتساعد الحركة فى ظاهرها ، حركة نموها فى باطنها.

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء ، والنظافة والحركة وسواها واجب ، والسير به على قانون الصحة متعين ، لسلامته وسلامة النفس معه . ولا تعجب للاسهاب والتوكيد منا فى هذا الباب ، فانه أصل معالجة النفس . ومما يدلك على ذلك أنك ترى الشىء فى حال انتظام صحتك فترتاح اليه نفسك وتستملحه ، ولكنها إذا رأته فى حالة من حالات الجسم المعتلة انقبضت منه ونبت عنه ، والشىء

هو هو واحد لم يتغير، وإنما الذى تغير نظام النفس بتغير نظام الجسم . ومن هنا قاعدة الحكماء المشهورة ، بأن الأشياء الخارجة عن الانسان لا قيمة لها فى ذاتها ، وإن طريقة نظرنا اليها ، وكيفية استقبالنا إياها هى التى تلبسها لباس الحسن أو القبح . وقد أجمع علماء الأخلاق أن تسعة أعشار السعادة قائمة على اعتدال البدن وصحة الجسم ، فان سلطانه على النفس عظيم ، تعتل باعتلاله ، وتعتدل باعتداله . وقد ترى كثيراً من أمراض البدن تؤثر فى الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها فى البدن نفسه . فيختل التصور ، ويتبلد الذهن ، وتسوء الطباع . ومن سوء الرأى ، وخبل العقل ، أن يهمل الانسان أمر بدنه ، ويشتغل عنه بسفاسف الأمور ، وينهكه فى سبيل المطالب الباطلة ، ويجعله فدية للسعى وراء المال ، أو الجاه ، أو العلم العقيم ، أو المجد الزائل واضرب عرض الحائط بقول المتنبى :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وتنقسم معالجة النفس من أكدارها إلى قسمين : الأول معرفة حقائق الأشياء فى ذاتها ، والثانى معرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التى تغشى على الحقيقة

وتشوهها ، فتوقعنا فى الضلال ، وتورثنا الشقاء والبلاء ، ولما كان من نتائج شفاء النفس من أحزانها وأكدارها الوصول إلى راحة الحياة ، فقد تعين علينا البحث أولا عن ماهية هذه الراحة فى معيشتنا ، وعن ماهية الألم ، وعن حقيقة الخير ، وحقيقة الشر ، وهل هذه الدار دار ألم وشقاء ، خالية من أسباب السعادة والهناء ، أم فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول :

إن الله جلت قدرته ، لم يرد بخلقه شرا فى هذه الدنيا ، ولم يجعلها مستقرا للألم ، ومستودعا للعذاب ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل جعلها لأوليائه . وأولياؤه هنا أهل الفضيلة ، دار سعادة وهناء فانية ، يرحلون منها إلى دار سعادة وهناء باقية ، قال الله تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ولقد اشتبهت علينا الأمور واختلفت فى نظرنا الأشياء ، وأخذنا بتضليل المضلين ، وبطلان المبطلين ، فصرنا لانفرق بين الخير والشر ، والطيب والخبيث ، والنافع والضار ، واللذة والألم ، بل أخذنا هذا مكان ذلك ، وصبغنا الضد بصبغة ضده ، وحولنا الأشياء عن أصولها ، فوقعنا فى شر العذاب .

ومن خالف الحقيقة أعنى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وانسلخ عنها ، فاحرى به ألا يلقى فى دنياه راحة ، ولا فى حياته سعادة ، فنحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ، ونسود عيشنا ، ونخرب بيوتنا بأيدينا ، ونشكو الزمان وما فسد الزمان وانما نحن الفاسدون . قال الشاعر :

يقولون الزمان به فساد وقد فسدوا وما فسد الزمان

وقال المتنبى :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

وكما أنه لا يمكن طبيب الابدان أن يعرف علاج الامراض وشفاءها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو فيه ، كذلك لابد لحكيم النفوس من تشريح الفكر ، ومعرفة وجوه الخطأ والصواب فيه ، لانتظام صحة التنفس .

فاختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ فى الحكم على حقائق الأشياء ، والغلط فى التقدير ، وضعف التمييز بين الصحيح والفاسد .

فتوازن الفكر ، وصحة التمييز وسداد الحكم ، ومعرفة الأشياء من ذاتها ، مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم ، هو

مانسميه عقلا ، وهو أحد أركان الفضيلة التى لاتنال السعادة والراحة فى الدنيا بدونها .

وهذه السعادة التى نتكلم عنها ، هى التى كانت الشغل الشاغل لجماعة الفلاسفة والحكماء منذ الدهر الأول . فذهبوا فيها مذاهب شتى ، واختلفوا فى كنهها اختلافا بينا ، دعا اليه حب الجدل ، وانتصار كل واحد منهم لرأيه ، حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا لما يسمونه السعادة العظمى ، مائتين وتسعين وجها كل واحد منها يختلف عن الآخر ، والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة ، احدهما أن سعادة الحياة هى ذات الفضيلة ، وأنه ينبغى للانسان أن ينشدها بكل وسيلة سواء أوصل اليها من طريق الألم ، أم من طريق اللذة ، وثانيهما أن السعادة العظمى فى اللذة يبلغها الانسان من طريق الفضيلة ، فالفضيلة هنا واسطة وهناك غاية .

ومن تأمل فى هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية ، والفطرة الانسانية ، وهو ثانيهما . لأننا إذا تأملنا فى أطوار الانسان كلها ، وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته فى الوجود . ويميل بطبعه إلى التمتع بها ويجدها خيرا عظيما .

ثم هو ينفر كل النفور من الألم ويتقيه ، ويسعى جهده فى دفعه عنه ، ويراه من أكبر الشرور . هذا فى حالة صحة الحكم الذى فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفكر وفساده ، ولا محل هنا لاقامة البراهين ، فالأمر محسوس لا نزاع فيه . وما كان محسوساً لم يحتج الى برهان والفرق ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة الى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج منها ، وبين عدم الاحتياج لغير الشرح والوصف فى بسطها ، والحس هو الحاكم الأول على الانسان فى جميع أحكامه ، فلو نزعناه عنه ، لم يبق لديه شىء من قوة الحكم ، ولم يدرك التمييز بين ما هو موافق للطبيعة وبين ما هو مخالف لها .

ولا يوجد أحد فى العالم يكره اللذة ، وينفر منها ، لأنها لذة فى ذاتها ، بل لأنها قد ينتج عنها الألم لمن لم يعدّلها ويأخذ بحسب أحكام الفضيلة . كما أنه لا يوجد إنسان يحب الألم ويطلبه لكونه ألما فى ذاته ، بل لانه قد ينتج عنه لذة . ولذلك ترى الانسان يحتمل كثيراً من الآلام ، لأجل أن يتوصل بها الى نتيجة نافعة ، فالرجل الذى يبحث عن اللذة التى لا ضرر فى عاقبتها ، لا يكون ملوما فى حكم العقل ،

بخلاف من يبحث عن الألم الذى لا يكون من ورائه لذة .
نعم إننا نلوم كل من غرته جاذبية اللذة الوقتية ، فعمى عما يلحقهـا من الآلام والأكدار ، التى تلحق بالنفس فى استسلامها لقيادة الشهوات ، كما أننا نلوم أولئك الذين يذهب بهم الترف والليان الى اتقاء الألم باغفال القيام بالواجب عليهم .

وشأن العاقل فى اللذة إذا كان حراً فى تناولها ، ولم يكن له مانع عنها ، أن يتمتع بها ، ويتخلص من الآلام . ولكن إذا اعترضه فيها واجب من الواجبات الاجتماعية ، أو ضرورة من نظام المعايش ، وجب عليه أن يرفض لذته ، ويتقدم لتحمل الألم والتعب ، فان نبذ اللذات الصغيرة لاقتناء اللذات الكبيرة ، واحتمال الآلام الخفيفة لدفع الآلام الشديدة ، هو ما يقضى به حكم العقل على الانسان . وليكن عقله ميزاناً يزن به الراجح من المرجوح وليست اللذة فى كل هذا بالمعنى المشهور بين الناس ، بل هى ما يلائم الجسم والنفس ، ويصل بهما إلى سعادة الحياة من طريق الفضيلة .

إن اللذة الكاملة ، التى ننشدها من طريق الفضيلة ،

ونجتهد فى تعريفها لك ، ليست هى ذلك الاحساس الذى تحسه فى أثناء سد الحاجة . بل هى الحالة التى يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم . فلا يقال للجائع وهو يلتقم طعامه لقمة بعد لقمة ، إنه قد بلغ اللذة ، وإنما يبلغها عند الانتهاء من الطعام ، لأنه ثائر أثناء الطعام فى طريق رفع ألم الجوع ولم يصل إلى غايته بعد وهى الشبع ، الذى تناول الطعام لأجله . فاللذة إذن فى تمام رفع الألم ، لا فى مباشرة رفعه ، لأنها فى مباشرة رفعه غير كاملة ، واللذة الكاملة هى الراحة التى يجدها الجائع عند الشبع ، والظمآن عند الارتواء ، والسهران عقب المنام .

لكن الناس بمعزل عن معرفة قدر هذه اللذة ، التى هى سلامة الجسم من الألم ، وسلامة النفس من الاضطراب . ومن جهلهم بها أنهم لا يدركون ما هم فيه من تلك الراحة . إلا بعد زوالها عنهم . ولا يتمتعون بها وهم فيها ، ولا يتوهمونها إلا فى أثناء المسير اليها ، فترى صاحب الجسم السليم من كل علة . لا يدرك أنه فى أعظم لذة من الصحة . إلا إذا حل به مرض من الأمراض ، يرفع عنه الحالة التى كان عليها من الراحة . فاذا تدرج فى أدوار

النقاهة من مرضه . توهم فيها لذة ، و إنما حقيقة اللذة هى الرجوع إلى حالتـه الأولى التى كان غافلا عنها . وكذلك لا تكون الراحة للمقيد فى الحديد عند فك القيود عنه ، بل عند ما يعود جسمه إلى الحالة التى كان عليها قبل وضع القيود فى رجليه . وهذا الوهم هو من أكبر الأسباب التى سودت حيـاة الناس بالأكدار والأحزان . وجعلتهم يعتبرون أنفسهم فى الشقـاء وهم فى نعيم ، ويرونها فى نعيم وهم فى شقاء . غافلين عن نعمة تلك الراحة التى هى منتهى السعـادة والتى قيل فيها : « ليس للراحة قيمة » فهى فوق كل قيمة فى متاع الحياة الدنيا .

واذن فقد تقرر أن المسافة التى يغيب فيهـا الألم ، لا المسافة التى يرتفع فى أثنائها ، هى اللذة المقصودة لدى الحكماء . والعاقل الحكيم لا يمتنع عليه أن يدرك الراحـة فى حياته على كل حال ، ولو كان واقعا فى الألم . فان الألم إذا كان طويل المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة ، وإن كان شـديدا فانه يكون قصير المدة لسرعة الخلاص منه . فالذى يهون على نفسه تحمل مالا بد عنه من الآلام فى هـذه الحياة على موجب هـذه القاعدة ـ إما بتحملها

والتمتع براحة فتراتهـــا فى حالة خفتها ، وإما بارتقاب الخلاص منها فى حالة شدتها ـ هو من يملك راحة الدنيا وسعادتها.

وهذه الراحة هى التى يطلب الانسان الفضيلة من أجلها ، ويرغب فيها للوصول اليها ، كما أنه لا يطلب الطب لذات الطب بل للتوصل به الى صحة الجسم ، التى تنشأ عنه كما أنه لا يطلب صناعة الملاحة لذاتها بل للوصول إلى السلامة . والحكمة التى هى صناعة الحياة ، إذا لم يكن منها راحة للانسان فى حياته ، فهى غير مرغوب فيها ، ولا مطلوبة لذاتها . هذا هو تعريف اللذة التى يخطىء الناس فى معرفتها ، ولا يدركون حقيقتها ، ولا وصول اليها إلا بالحكمة التى تكشف غطاء الأوهام ، وتمكن الانسان من الحكم الصحيح على الأشياء ، وترفع عنه غشاوة الغباوة التى استحكمت فيه ، وضـــللته حتى صار يتخوف مما لا خوف منه . ويحزن مما لاحزن فيه ، وهى التى ترشده الى تقليل الرغبات .

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

وتنزع منه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق ، والتقليد على العمى .

فتنطفىء منه نار الطمع والشره . التى طالما أودت بالأفراد والجماعات والشعوب بما أورثتهم من الأحقاد والأضغان، وما أضرمته من نيران الفتن والحروب . وجعلت الناس فى شقاء دائم ، وألم مقيم ، فالعاقل هو الذى ينفى عنه أسباب المخاوف ، ويقلل من الرغبات ، ويرضى بالكفاف ويقصر همه على ماتقضى به الحاجة الضرورية، والطبيعية، التى ليس من ورائها طمع ، أو شره. فانهما مجلبة الأحزان والآلام ، ومنبع المخاوف والشرور . وقد ألم بذلك أحد الشعراء فى قوله :

مرحباً بالكفاف يأتى عفيـــاً
وعلى المتعبات ذيل العفـــاء
ضـلة لامرىء يشـمر فى الجـ
ـع لعيش مشمر للفنـــاء
يحسب الحظ كلـــه فى يديه
وهو منه على مدى الجوزاء
ليس فى آجل النعيم له حـ
ـظ وما ذاق عاجل النعماء

ذلك الخائب الشقى وان كا
ن يرى أنه من السعداء
حسب ذى اربة ورأى جلى
نظرت عينه بلا غلواء
صحة الجسم والجوارح والعر
ض واحراز مسكة الحوباء

وقد آن أن نبين غلط الناس فى حكمهم على الأشياء وضلال رأيهم، إذ يعتبرون الخير منها شرا ، والشر منها خيرا . وأكبر خطأ يتملكهم هو خوفهم وفرقهم من الموت الذى هو رافع الأسقام ، ومزيل الآلام ، فيعدونه أعظم الخطوب ، وأكبر الشرور ، واعلم انه ليس شىء من أمور الدنيا الا وهو محل للشك حتى قال بعض الفلاسفة : « ان كل شىء يقبل الشك » حتى قولتى هذه « ان كل شىء يقبل الشك » ومن بينهم طائفة يعرفون بأهل الشكوك فهم يشكون فى كل شىء ، حتى فى وجود أنفسهم ، ويعتبرون الحياة بما فيها حلم حالم ، ورؤيا نائم ، وقد أشار الى ذلك شاعر يتتبع أقوال الحكماء :

هون على بصر ماشق منظره فانما يقظات العين كالحلم

ولكن مهما كان الشك فى أمور الحياة ، فانه يوجد أمر واقع حق لاشك فيه هو الموت . ولكن من عجيب الأمر أن الانسان يوقن بالأباطيل ؛ ويؤمن بالخرافات ، ويصدق بالوهم والخيال ، ولا يوقن بالحق وهو الموت وكأنما هو يشك فيه :

والموت لايخفى على أحد ممن ترى وكأنه يخفى

ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت ، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به وبسط القول فى ان الحياة باطل والموت حق . وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة فى وجوب تذكر الموت كل حين ، فاذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره ، ووضعوه بجانب المهد يجددونه على مقدار النمو فى الطفل ، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا بلغ أشده وضعوا النعش بجانب السرير ، الى أن يحل يوم أجله فيحملونه عليه ، يشيرون بذلك الى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان . وحبلان متصلان ، وان الانسان يمشى فى هذه الدنيا ، وكأنه عابر جسر عن يمينه الموت ، وعن شماله الحياة ، وانه كما يدب بنموه فى الحياة ، يدب فى

آن واحد ، بأنفاسه نحو الممات . وانه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة ، وان اليقين كل اليقين فى اعواد النعش ، والشك كل الشك فى أساطين القصر . وهم يلبسون السواد حدادا فى يوم الولادة ، والبياض فرحا عند حلول الأجل ، حتى أنست نفوسهم بالموت ، ولم يعتبروه شرا ، بل هو الخير كله عندهم . ولذلك لم يجعلوا بينهم حكم الاعدام قصاصا وعقابا ، وانما العقاب عندهم هو فى ايلام الأجسام ايلاماً متواترا لا تقصر معه مدة العمر ، لأن الموت هو المنقذ من الآلام كلها ، وانما جعله أهل المدنيات الأخرى عقابا لجزع النفوس منه ، وتخوفهم الدائم من وقوعه ، فكأن تصوره فى الوهم هو العقاب الأكبر عندهم .

فمن منتهى غباوة الانسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء فى الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر .

والناس ينقسمون بالنسبة إلى ذكرى الموت قسمين : قسم لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على خاطر ، كأنه قد

رسخ فى ذهنه ألا فناء مع البقاء ، ولا هلاك مع الوجود ، وهو لا يحس هذه الحقيقة أم الحقائق فى الدنيا الا عند المشاهدة والعيان ، ولا يذكر الموت الا ريثما تنقضى عنه المشاهدة كأن يشتد به مرض يذكره بالموت ، فاذا قام من مرضه لم يتذكر الموت بعده . واذا شاهد الموت بعينه فى أهله وجيرانه ، لم يبق ذكره لديه الا ريثما يطرأ عليه شغل من مشاغل الحياة يصرفه عنه ، فيعود الى ذهوله الأول وعماه المستديم .

وقد يظن بعض الناس أن فى الذهول راحة من التفكر فى الموت ، والحقيقه أن فى هذه الأوقات القصيرة التى يتذكر الذاهل فيها الموت عند نزول المرض به ، أو عند وفاة أحد أهله وصحبه ، من آلام الجزع والفزع مالا تقاس آلامه بآلام الحياة ، كلها ويقع هذا التذكر الفجائى على ناحيته موقع زلزلة تهدم فى لحظة واحدة جميع ماشيده فى رأسه من الآمال ، وما ابتناه فى خياله من الأمانى ، التى تسبح به فى تيار الخلود ، أو هو نفخة الصور ، تذهب برشده ، وربما أصابه فى أعضائه وجوارحه فجعله ثانى قريبه أو صاحبه فى القبر .

لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب

وهم أشد الناس حزناً عند فقد فقيد لهم، لا للأسف عليه، ولكن لخوفهم أن يصيبهم ما أصابه، وهلعهم أن يجرى عليهم ما يجرى على من بجانبهم. وإذا قابلتهم يوماً بقولك لهم « مات فلان من أصحابكم. اعتراهم الدهش والعجب، كأنك أخبرتهم بأمر ليس من الجائز وقوعه، فهم يبادرونك بقولهم « وكيف مات ؟ » لا يستفهمون عن سبب الموت ولكن عن الموت نفسه !!

ومن دأبهم أن يعملوا ما فى وسعهم لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت، ويدأبون فى طىّ المذكرات به، كان لى صاحب أديب اذا قرأ قصيدة « بانت سعاد » أغفل منها قول كعب فيها:

كل ابن أنثى وان طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول

وآخر كان لا يمشى فى جنازة، ولا يحضر مأتما، ولا يزور مقبرة. فاذا رأى يوما آلة من آلات الدفن، أو الكفن هرب ببصره عنها، واستعاذ الله منها، ومنهم من

يهجر بيته اذا مات فيه ميت. حتى لا تذكره جدرانه بخروج الميت منه. ولو أنك أهديت الى أحدهم صورة جمجمة من ذهب مرصعة بالجواهر، لاستنكرها وبشع منها، ونبذها عنه بعيـــدا، وربما أضمر لك العداوة، وسخط عليك لاعتقاده أنك قصدت به السوء فى تذكيره بهذا الشر العظيم، والأمر الفظيع. حتى لقد صارت تلك الجمجمة التى بقيت فى محافل الماسون أثرا من آثار آبائهم الأولين فى وجوب تذكر الموت والتفكر فيه، آلة بين أيديهم اليوم من آلات الارهاب والتخويف. يمتحنون بها شجاعة الداخلين فيهم، ولو بحثت فى رأس الماسونى الحديث الدخول عن أثر ما قاساه ليلة دخوله من تصنيعهم فى الارهاب والتخويف لم تجد باقيا منه فى هذا الرأس الا تلك الجمجمة. وكان فى مصر رجل من أهل العلم والورع يتطوع لغسل الموتى، اذا دعاه أمير أو كبير لغسل من يعز عليهم موته تبركا به، فكان مع سعة علمه، ودماثة أخلاقه، ونظافة ثيابه، ورقة شمائله، اذا دخل مجلسا من مجالس العظماء انقبض الجميع، وانسل الواحد منهم فى أثر الآخر، واشمأزوا أن يضعوا أيديهم فى يده. وشاهدنا سيدا من

السادات قد تهدمت زاوية آبائه وأجداده، الذين يعيش فى كنف مجدهم، وشرف نسبتهم، ويفخر بالاتصال بحبل تلك الرفات ، يفزع ممن يذكره ببناء المتهدم، ويستهول على نفسه أن يزور المقبرة يوما لينظر فى وجوه ترميمها . أما اذا قال قائل لواحد منهم فى مغاضبة « ان شاء الله تموت » فهنالك الهول الأكبر من العداوة والبغضاء ، لأنه جاء بأفظع ما يكون من أنواع الدعاء عليه .

ولضرب الأمثال وذكر النوادر فى هذا الباب مجال متسع نخشى معه الملل من كثرتها ، ويكفى الانسان أن ينظر الى من حوله فى كل ساعة من كل يوم فيرى العجيب الغريب من الشك فى اليقين والارتياب فى الواقع المحتوم

واما أهل القسم الثانى بالنسبة الى ذكرى الموت ، فهم أولئك الذين تراهم يذكرونه دائما ، لخشيتهم من وقوعه ، وخوفهم من نزوله ، فيتولاهم الرعب ، ويترقبون وقوعه فى كل حين، ويعتبرونه هادم اللذات، ومقوض بناء السعادة، وأكثر ما يذكرونه اذا خلوا من أشغالهم ، وانتقلوا الى أوقات فراغهم ، فيكدرون صفاءها ويسودون بياض عيشتهم ، بالتخوف الدائم من زوالها . وأشد ما يكون

عذابهم من ذكرى الموت، اذا أردف الله عليهم النعمة فى أثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فلا يبصر أحدهم ولده يلعب أمامه، الا وتغلب على فكره التخوف عليه من الموت، أو الترحل قبله ولما يتمتع به ولم ينظر الى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف، الا نظر المغشى عليه خشية الحرمان منه بالانصراف عنه وما يكون مصيره بعد رحيله، ومآله بعد زواله. لا يزالون هكذا فى حال القلق، والهلع، والجزع، والفزع، والرعب والكدر، فتنقبض النفوس، وتطرق الرؤوس، وتسقط عليهم الهموم كسفا من العذاب، يتململون تحتها تململ السليم المنهوش، ويئنون أنين المصفد فى القيود «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت»

وترى هؤلاء الذين يذكرون الموت ويخافونه، ويحرصون على الحياة فى هم دائم، وعناء مقيم، للتوقى من

الأخطار ، والتحرز من أسباب الهلاك . ولا يكتفون في ذلك بما يدخل في طوقهم الاحتراس منه ، بل يتجاوزونه الى معالجة ما لا دافع له من الاقضية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة ، كالطواعين والأوبئة وغيرها من أمراض العدوى وكالزلازل والصواعق والعواصف . ومنهم من لا يركب السفينة خشية الغرق ولا القطار خوف المصادمة ، ومنهم من يقوم من منامه مرة بعد أخرى فيدور في أنحاء البيت كالعسس يتفقد أثاث الحجرات أن يكون اتصل بها شيء من أسباب الحريق . فاذا أمن المسكين ساعة واستغرق في نومه فرأى في الرؤيا أن أحداً ممن مات من أقاربه او أصحابه دنا منه او سلم عليه أو دعاه اليه قام من منامه في اشد حالات الفزع كالذى يتخبطه الشيطان من المس اينما وجه وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل وصدق الرؤيا . وكأنه في فزعه ليله ونهاره عدو المعتصم في قول ابى تمام :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

رصدان ضوء الصبح والاظلام

فاذا تنبه رعته واذا غفا
سلت عليه سيوفك الأحلام

ومن غريب المناقضات فى أمرهم أنهم مع هذا التوجس الذى هم فيه اذا ذكرت اسم الموت فى مجالسهم لووا أعناقهم وكادت تقف حركات قلوبهم من الغيظ ونقموا عليك ان ذكرتهم بما لا يغفلون عن ذكره والتخوف منه ليلهم ونهارهم . كما أنهم يستبعدون الموت فلا يكادون يصدقون بموت الفجأة ، فاذا سمعوا بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون العلل ويتمحلون الأسباب وينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به

واذا أخبرتهم بموت شاب فى غضارة عمره وغضاضة سنه ، زادوه ما شاءوا من عدد السنين ، كأن الانسان لا يموت شاباً ، ولذلك تراهم يخفون حقيقة أعمارهم ، ويجتهدون فى تنقيص سنيها ، ويقفون على سن واحد ، وان جرت من بعده السنون ليغشوا أنفسهم ويطرحوا من فكرهم امكان المفاجأة من ذلك العدو الأحمر أو الأزرق فى حين الغرة وفى مقتبل السن ،

وليطمئنوا إلى تراخى الأجل.

أما سيرتهم فى التحرز لأجسامهم، والتوقى لأبدانهم، فى ليلهم ونهارهم، أن يعتريها اعتلال، أو يصيبها اختلال، فانهم يتغالون فيه إلى حد الجنون، فيحاذرون هبوب النسيم، وحرارة الضياء، ويتوهمون فى كل لقمة تخمة، وفى كل جرعة غصة، والمكروب وما أدرك ما المكروب فى الطعام وفى الشراب فيلتزمون الحمية، ويتخيرون لهم ألواناً خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم ويضعف، فيعمدون إلى استعمال الأدوية المختلفة بجواهرها المعدنية، لتقويته فيزداد بها ضعفا، لأنه لا يمتصها بل ترسب فيه، وتعطل وظائفه، وتفسد المعدة التى عليها صحة الجسم كله، فينتقل الوهم إلى الحقيقة، وتتناوبهم الأمراض التى أعدوا أنفسهم لها بأيديهم، فيقعون فى يد الطبيب، فاذا لم ينته به جهله وطمعه إلى إراحتهم بالموت عاشوا بين يديه عيشاً كله آلام وأوصاب إلى أن يحل بهم الموت من خوف الموت، ويذهبوا إلى حال سبيلهم، لاهم تمتعوا بالحياة، ولاهم نجوا من الموت، ولا تنكر علينا ما قدمناه من أن التوهم والتخوف يحدث الأمراض فى الأجسام، فان

للخوف سلطانا على النفس والجسم ، لا يعدله سلطان فى العالم ، وله أعظم أثر فى فساد صحة الانسان. فيختل به نظام الجسم ويؤدى به إلى الهلاك . ولذلك لا نرى بدا من الكلام فيه للانتباه إلى إضعاف سلطته ، ووجوب طرحه جانبا ، فان فى نموه ، والاسترسال فيه ، شقاء الروح ، وسقم الجسم ، فتسيل منه ينابيع الأحزان والأكدار ، وتتفجر عيون الغموم والهموم فنقول :

أجمع جلة العلماء من أطباء العصر الحاضر ، بعد كشفهم وبحثهم ، على أن مجرد التوهم والتخوف ، يحدث أمراضاً فى البدن لم يكن لها من سبب سواه فى الباطن والظاهر ، ولا محل هنا للتطويل بذكر مباحثهم التشريحية ، وإنما نذكر شيئا مما يستشهدون به برهاناً على مباحثهم العلمية ، من الحوادث والوقائع التى شاهدوها بأعينهم ، ومارسوها بأنفسهم ، مما لا يقبل الشبهة ، ولا يعتوره الريب ، ففيها الكفاية .

باشر أحد الأطباء تشريح ميت مات بداء الكلب ، فاعتراه خوف شديد ، أن يكون قد علقت به الجراثيم ، وأصابته العدوى ، واشتد به الخوف فأخل بنظام الجسم ،

فتولاه الأرق ، وفقد شهوة الطعام ، وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل ، فكان إذا ألهبه العطش شرب جرعة من الماء لا يكاد يسيغها ، وزادت به الحال إلى أن هام على وجهه فى الطرق ضالا مختبلا ، وأدرك بعض أهل صناعته خطبه وأنه من أثر الخوف والوهم وسوء التصور ، فصرفوا جهدهم لتخفيف مابه ، وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها ساعة ، وما زالوا به حتى أقنعوه بأنه سليم الجسم معافى من تلك العدوى ، وأن مابه هو من أثر الخوف لاسواه. فأخذ ينسى بفضل اجتهادهم تلك الفكرة القائمة به وشفى منها شفاء تاماً . ومن الأمور المقررة فى أقوال الأطباء أن مجرد الخوف يولد فى الجسم أعراضا هى بذاتها أعراض داء الكلب ، وذهب أحد مشهوريهم إلى أن الخوف هو سبب الكلب ، وليس سببه عقر الكلاب ولعابها . روى أن كلبا مسعوراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر فى يومه إلى أمريكا فسافر اليها وغاب خبره عن أهله ، فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة أخبره أحدهم بأن أخاه مات من أثر عضة الكلب ، فانتفض فوقع تأثير ذلك عليه كالصاعقة ، وظهرت عليه أعراض داء الكلب فى أقصى

حدتها ولزم فراشه حتى مات .

وقد ثبت أن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة إلا عن إخبارهم بأن الكلب الذى عضهم كان مسعوراً . ولا يمكن الطبيب أن يميز بين الاصابة بالكلب الناشئة عن الخوف ، والاصابة الناشئة عن عدوى الداء .

وكما يمرض المصاب بالوهم ، فانه يشفى أحيانا بالوهم : دعى طبيب لمعالجة احد المصابين بالكلب بعد ان يئس منه جميع الأطباء وحكموا بموته ، فأخذ يقلب جسمه تقليبا دقيقا ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فمه ، فما لبث المريض ان شفى بفضل تلك القبلة التى اعتقد بها ان الطبيب لم يقبله إلا وهو آمن على نفسه من عدوى ذلك المرض ، وانه خلو منه .

واكثر ما يفتك الخوف بالناس فى أيام الأوبئة والطواعين ، والذى يعظم خوفه ، يكون أكثر عرضة لها من سواه ، وقد يكفى الخوف وحده ليسبب اعراض الوباء ولو كانت جراثيمه منعدمة بتاتا . ومما يحكى ان إحدى النساء بلغها وفاة اخت لها بالوباء فى بلاد بعيدة فجزعت جزعا شديدا ، وخيل لها ان سيصيبها ما اصاب اختها ،

واستولى على فكرها هذا الوهم فأضاع منها شهوة الطعام وأحدث لها إسهالا ، ولم يستطع الاطباء إنقاذها إلا بعد ان اثبتوا لها بالبراهين القـــاطعة انه يستحيل إصابتها بتلك العدوى لبعد الشقة بينها وبين اختها ، وأن ما اصابها إنما اصابها من أثر الخوف .

وقد وصف أحد الأطباء زلزلة فى كتابه ، فقال ، إن عدد الذين أصيبوا بالحمى من شدة الخوف وماتوا بها ، كان أكثر من الذين تهدمت عليهم الدور .

وقد يموت بعض الخائفين فجأة ، جزعا من الذهاب إلى المستشفى . وبعض الناس اذا اشتد به الخوف انتحر ، كما يحصل لبعض الجبناء إذا سيروهم إلى الحرب فيستعملون أسلحتهم فى قتل أنفسهم ليخلصوا من آلام الحرب .

ومن القول المتواتر فى مصر أن داء الزهرى يأتى أحيانا من الفزع والرعب ، وقد لاحظ أحد الأطباء أن جرحى الجيش القاهر أقوى على احتمال آلام جراحهم من جرحى الجيش المقهور ،

وكان أحد كبار الأطباء إذا أتوه بمريض سأله أولا عما إذا كان اعتراه مرة خوف ، أو ضيق شديد ، فيستعين

بمعرفة ذلك على علاجه .

فأنت ترى أن آلام النفس أفتك بالأرواح من آلام الجسم ، ولو علمت عدد الذين يقتلهم اليأس ، والهم ، والوجد والغرام ، وداء الحنين إلى الوطن ، فى كل زمان ومكان ، لأيقنت أن الخطب من ألم النفس عظيم .

ومن الحوادث التى تروى لبيان تأثير سلطان الخوف والوهم فى النفس ، حتى يصل بها إلى الهلاك ، ما حكاه أحد المعلمين فى مستشفيات لوندرة من أن جماعة من طلبة المدارس أرادوا أن يسخروا من رجل كانوا يبغضونه فى المدرسة ، فعمدوا إلى حجرة مظلمة فى المدرسة ووضعوا فى ركن منها حطبا للوقود ، ووضعوا بجانبه فأسا محددة ، وجلس فى صدرها بعض الطلبة متشحين بالأردية السوداء التى تلبس فى مجالس القضاء ، ثم أدخلوا الرجل الى الحجرة ، وأخبروه أنهم اجتمعوا لمحاكمته ، وأنهم أعدوا الحطب للاحراق ، والفأس للاعدام ، فظن الرجل فى أول الأمر أنهم يمزحون معه ، ولكن مازالوا يؤكدون له أن الأمر جد وأن القضاة يبحثون الآن فيما يستحق من العقاب ، فوجل الرجل وجلا شديداً ، ونطق

القضاة بحكم الاعدام ، وبتنفيذه فى الحال ، وتقدم الجلاد والفأس فى يده وباشر آخر عصب عينيه بعصابة، ثم كتفوه وأركعوه إلى الأرض وعند صدور الأمر بالتنفيذ لف أحد الطلبة قطعة من النسيج مبتلة بالماء ولمس بها قفاه يحاكى بها لمسة الفأس ، فتوهم الرجل أن القتل وقع عليه فارتمى على الأرض لاحراك به ، فكشفوا عن عينيه الغطاء وأخذوا بيده ليرفعوه فاذا به قدمات فعلا من شدة الرعب والخوف .

ومنها أن جماعة من أطباء روما ، أرادوا أن يشاهدوا بأنفسهم تأثير الخوف ، فطلبوا من الحكومة أن تسلم لهم فى أحد المحكوم عليهم بالاعدام ليجربوه فيه ، فدفعت اليهم أحد الجناة فأخذوه وأعلموه أنهم استنزلوا الحكومة عن اعدامه بالخنق الى إعدامه بفصد العروق ونزيف الدم ، ليدرسوا عليه بعض الشؤون الطبية ، وساروا به إلى أحد المستشفيات حيث اجتمع خلق كثير من الطلبة والمعلمين، ووضعوا العصابة على عينيه وأصعدوه بعض الدرج، ثم أدخلوه حجرة الغسيل ووضعوه بجانب حنفية ثم شمروا أكمامه وأوهموه أنهم سيبدأون بالفصد، ومس

أحدهم بمبضعه ذراع الرجل مسا خفيفا ، وأرسل آخر منهم فوهة الحنفية فسال منها المـــاء بخريره ، فما زال الماء يسيل ، وقوى الرجل تنحل شيئا فشيئا ، لاعتقاده ان الماء الذى يسيل هو دم النزيف حتى وقع ميتا .

وكما يمرض الجسم بالوهم ، كذلك يصح بالوهم ، ومن آية صحة ذلك أنه كان فى أحد المستشفيات امرأة مصابة بداء الصرع ، فاذا اعترتها نوبته ، اذابت القلوب من التـــألم والأنين ، فيحقنها الطبيب بالمرفين لتسكين الألم . وحضرتها النوبة ذات ليـلة فقـــام الطبيب إلى صندوق الأدوية ليأخذ المرفين فوجده قد نفد ، واشتدت الآلام بالمرأة حتى اقلق صراخها جماعة المرضى ، وزاد فى آلامهم ، فلم يجد الطبيب من حيلة امامه الا ان ملأ زجاجة الحقنة بالماء مكان المرفين وقصد المرأة فحقنهـا كالعادة فسكنت فى الحال ، واثر الماء فى اعصابها تأثير المرفين بمجرد الوهم . ومما يروى ايضا فى هذا الباب ، ان أحد المصابين بداء الصدر كان نائما مع صاحب له فى غرفة نومه ، فقام صارخا فى آخر الليل وقد انطفأ السراج ، يشكو ضيق النفس ، وينادى صاحبه من منامه ، متخبطا

فى الظلام ، متحيراً فى الغرفة ، يتلمس الحائط بيديه ، حتى ظن أنه عثر على مكان النافذة ، فأخذ يعالج فتح زجاجها فاستعصى عليه فضربه بقبضة يده فكسره ، فتنفس المريض مرتاحا وذهب عنه ما كان به من ضيق التنفس ، وعاد كل منهما إلى نومه ، فلما استيقظا فى الصباح وجد زجاج النافذة سليما مغلقا ، وتبين لهما ان الزجاج الذى انكسر فى الليل وتنفس المصدور بكسره ، هو زجاج خزانة الكتب وما استنشق المريض إلا هواء موهوما .

وقصارى القول ان حوادث الخوف والوهم وتأثيرهما فى النفوس شائعة كثيرة ، ومن استسلم لهما لم يلبث أن يصاب جسمه بالأوجاع والأوصاب من تأثيرهما ، فاذا مرض الجسم مرضت النفس بمرضه ، فيقع الانسان فى الدور والتسلسل ، وإذا مرضت النفس بالوهم والخوف أثرت فى الجسم فيضعف وتنتابه الأمراض ، فيزيد فى ضعف النفس وأمراضها وأشدها الأكدار والأحزان .

فاذا أنت أخذت فى جسمك بقانون الصحة كما قدمنا ، وعالجت نفسك وعودتها دقة النظر ، وحسن التبصر ،

وصحة القياس ، ومعرفة حقائق الأشياء ، وحلت بينها وبين التدرج فى الهواجس والوساوس ، وأبعدت بها عن الاستسلام للاوهام والأخيلة، وتذكرت الموت فى كل حين، لا للخوف منه، ولكن للاستئناس به حتى تصل إلى أن تحدق فى وجهه لا أن تغمض عنه ، وأن تعتقد فيه أنه شفاء الأسقام وختام الأوجاع ، وسبيل النجاة ، وأنه هادم الآلام ، لا هادم اللذات ، وأنه واقع لا محالة ، وأن أوان حلوله مخبوء مجهول ، وأنه بمقربة منك فى كل لحظة ، وعند كل لفتة ، هانت عليك الدنيا ، وصغرت فى عينيك ، ولم تحفل بنزول النوازل ، وهبوط النوائب ، ولم تتأثر من شرور الخلق ، وتذكر دائماً عند كل خطب ينزل ، قوله تعالى : «إنك ميت وإنهم ميتون» وكن فيهم مثل ذلك الحكيم الذى مثل أمام قضاته ، ليحاكموه ظلما على أنكاره لعبادة الأوثان ، فلما قضوا عليه بالموت قال لهم : « وأنا أيضا قد قضيت عليكم بالموت » .

نعم إنك إن أخذت بهذه الوسيلة فى معالجة النفس، وتدرجت فى استعمالها سلم جسمك من الأمراض

والأوصاب ، وسلمت نفسك من الهموم والأكدار ، وقضيت عيش الحياة فى صفـــاء الى أن يحل الأجل ، « ووجهك وضاح وثغرك باسم » وتلك هى السعـادة فى الحياة الدنيا .

المعروف

إن أكثر ما تتألم به النفوس ، وتتوالى منه الشكوى ، كفران النعمة ونكران الجميل ، وضياع المعروف ومقابلة الاحسان بالاساءة والخير بالشر .

ولو تأمل الانسان فى انتشار هذه الشكوى بين الناس واستدامتهم عليها ، لكاد يحكم بأن الانسان شرير بالطبع ، وأنه مجبول على السوء ، وليس الأمر على ذلك ، وإنما الأصل فيه أننا لا نعرف كيف نسدى المعروف ولا نعرف كيف نتقبله التقبل الخليق به ، فان المعروف إذا وضع فى غير موضعه ، أنتج الكفران ، فاذا انتج إحساننا كنودا ، فلا حق لنا فى الشكوى ، لأننا أضعنا المعروف منذ وضعناه ، ولا محل للاستغراب من أن رذيلة الكنود والكفران ، منتشرة انتشارا عظيما بين الناس أكثر من انتشار بقية الرذائل ، لأن لذلك عدة أسباب ، أخصها سوء التبصر فى اختيار من نضع معروفنا عنده . ومن الغريب أننا نأخذ بالحيطة إذا أردنا ان نقرض إنسانا

شيئا من الدراهم ، فنبحث وننقب عما يملك من متاع وعقار ، لنأمن على أموالنا من الضياع، ولا نحتاط أدنى احتياط إذا أردنا أن نسدى معروفا ، او ان نصنع جميلا . والمعروف ، وان كان يشابه الدين، إلا أنه يختلف عنه بأن الوفاء لا يكون عن مطالبة وتقاض بل عن رضا خاطر ، وطيب نفس، فلا تليق فيه الشكوى من تأخر المدين . لأن هذا الدين لا يوفى من أدراج الصناديق ولكن يوفى من ثنيات القلوب ، ويكفى فى وفائه الاعتراف به ، وليس انكار الجميل بأقل عابا ، واعظم عاراً . من المطالبة بالجزاء عليه .

وإذا كان المسدى إليه يستحق اللوم لنكرانه الجميل ، فهل يسلم المسدى من اللوم أيضاً ؟ كلا . فان فى طريقة الاعطاء فى بعض الأحيان إغراء وتحريضا على الكفران، فتارة يظهر علينا الامتعاض والتكره عند صنع المعروف، وتارة نذكر المسدى إليه بل نطالبه برد المعروف ، والربا عليه ، وتارة يعترينا الندم بعد اسدائه ونخالط المسدى اليه بوجه غير مرضى ، ونظر مشوب بالاعتلاء ، فيتكدر الصفاء ، وتنقبض النفس ، فنحن الذين نميت الشكران

بأيدينا ، ونبعث النكران بعد اسداء المعروف ، بل ابان إسدائه . ومن منا الذى أجاب القاصد لأول سؤال، وأعطى الملتمس لأول رجاء ؟ ومن منا لم يقطب جبينه ، ويلو عنقه ، ويتعلل بكثرة أشغاله ، ويطاول فى الحديث حتى لا تكون فرصة لصاحب الحاجة أن يكاشف بحاجته؟ ومن منا لم يتدبر الحيل للتخلص منه كأن يستقدم إلى مجلسه من يخجل الطالب منه أن يبوح بطلبته أمامه مثلا ، حتى إذا ضاقت الحيل ، ولم يكن بد من سماع الطلب ، فاما أن نجيب بالوعد أولا ، وهو نوع من الرفض ، وإما أن نعطى مع التعبيس ، والتقطيب، والكره، والتأنف . فكيف ننتظر بعد هذا شكرانا خالصا وقد أخذ صاحب الحاجة ما أخذه منا انتزاعا واغتصابا لا إسداء واعطاء ؟ وأى جميل يكون لك عنده اذا رميت له ما رميت فى يده من علياء كبريائك ، أو رميته له للتخلص من الطلب وأنت واجم ، ثم تؤمل الشكران بعد ذلك ! وكيف ترجو جزيل الشكران على سوء الاعطاء ؟ إنما يأتى الشكر من حسن الطريقة التى يسدى بها المعروف ولو كان ضئيلا ، فكيفية الاعطاء هى التى عليها المعوّل هنا ، وقد قيل حسن الاعطاء خير من

قيمة العطية . فاذا أردت أن تولد الشكران فلا بد أن تظهر نيتك الخالصة فى محبة الاسداء، ولا تنقص من قدره بالمواعيد ، ولا تصحبه بعلامات ظاهرة من المن تسوء النفس ، وقد جبلت طبيعة الانسان على سرعة التأثر بالاساءة أكثر من الاحسان ، ونسيان الخير أكثر من نسيان الشر ، فلا تنتظر شكرا وقد أسأت فى كيفية الاحسان ، ويكفيك من المسدى إليه أن ينسى سوء المعاملة فى إحسانك اليه وألا تحقد عليك .

ومع هذا كله فان كثرة أهل الجحود والكنود ، لاتوجب تثبيط همتنا ، ولا تحول وجوهنا عن اسداء المعروف ، وكفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا ، وما زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر . وانا لنستحق خيبة الرجا فى الشكر إذا كنا أعطينا ماأعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه .

كما أننا لاينبغى أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود . فكثيراً ماخاب ظن المرء فى امرأته وولده ، فما منعه ذلك من معاودة الزواج وتربية الأولاد ، وإشرافنا على الغرق مرة لايمنعنا من ركوب البحر

مرة أخرى ، والنكوص عن صنع الجميل بدعوى عدم المكافأة عليه ، يدل على التطلّع إلى استجلاب الفائدة من ورائه ، وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء ، وفى هذا ما يتخذه كافر النعمة تعلة يتعلل بها ، وحجة يحتج بها ليفر من خجل الكفران ، ولا يكون كفران النعمة وصمة عار إلا إذا تركت المسدى اليه مخيرا فى الشكر لا مغصوبا عليه ولا مندوبا اليه .

ومن أكبر الامارات على النفوس العظيمة الكريمة أنك تراها تفعل الخير لمجرد حب الخير . ومن الآيات الحكيمة التى يجب أن يأخذ المحسنون بأدبها قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا » ومن أجلّ هذه الامارات فى تلك النفوس أن كثرة أهل الكفران لا يثنيها عن معاودة اسداء المعروف ، فالكريم لا يبالى كفر الناس نعمته ام شكروها ، ويكفيه ان يستمرئ حلاوة الصنيعة حين اسدائها ، وهى اللذة التى يطرفه بها الاسداء وقد قال الشاعر فى ممدوحه

لو كفر العالمون نعمته لما عدت نفسه سجاياها

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنه ليس فى العالم قلب

شكور ، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض ، عن إسداء الاحسان ، والامتناع عن فعل الخير بعلة الحكم على القلوب ، بانطوائها على الكفران ، مسابقة للكنود ، ومشاركة له فى لؤمه ، وإذا كان ذنب الكنود عظيما فان ذنب الممتنع المتعلل على هذا الوجه أعظم منه . ومن ظن أن الكريم يخسر معروفه فقد أخطأ ، لأن لفظ الخسارة يشير الى معنى انتظار الربح ، وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج ، وماله الا باب واحد وهو باب الخروج والانفاق ، فان دخل فيه شىء من الشكران كان ذلك ربحا ، وإن لم يدخل فيه منه شىء فلا خسارة فيه . إذن فلا يجوز لمحسن أن يقول يوما خسرت الجميل وقد استمرأ لذته عند الاسداء .

ومن آداب إسداء المعروف أن يسدل المسدى دونه سترا من النسيـــان يبقى المعروف وراءه مستوراً حتى تكشف عنه يد الشكر من المسدى اليه .

والمعروف ، رأس مال ، طرحه فى يد الكنود خير من حبسه فى يد المحسن ، لجواز أن يربو بالشكر فى نفس الكنود يوما من الأيام ، على مرور الزمن ، ولا يبعد عليه

أن يتعلم منه حسن المثال فى إسداء الصنيعة .

ولا يقتصر إســـداء المعروف على بذل المال بل يتناول المال ، والجاه ، والسلطان ، والنصح ، والارشاد ، وحسن المعاملة .

وليس الانسان وحده هو الذى يدرك معنى حسن المعاملة ، بل الحيوان الكاشر ، والأسد الضارى ، إذا عودته الحسنى انتهى به الأمر الى الاستئناس والخضوع .

ولا شىء أقتل للكفران فى النفوس ، من المواظبة على دوام الاحسان ، فمن أسدى معروفا ولم يشكر عليه فى المرة الأولى ، فلا يبعد أن يشكر عليه فى المرة الثانية . فاذا قاوم الكفران الاحسان مرتين ، فعليك أن تعززهما بثالثة تذكر المسدى اليه بالاثنتين .

ولنبحث الآن فى ماهية المعروف وتقدير قيمته . فالشائع بين الناس أن كل إنسان منهم لا يعتبر نفسه مدينا لك بالشكر الا بمقدار ما اسديته اليه . فمنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال ، ومنهم من يقدره بمقدار الوظيفة التى سعيت له فى الوصول اليها ، ومنهم من يقدره بمقدار الخطر الذى أنقذته منه . بمعنى

أنك لو أعطيت صاحبك مائة درهم ، كان شكرانه لك على قدرها ، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد ، وهلم جرّا ! فقيمة الجميل ترتفع وتنخفض ، بارتفاع الأعداد وانخفاضها ! وذلك من الخطأ بمكان عظيم . فان العطايا ، والهدايا ، والصلات . والمساعى ، انما هى علامات ظاهرة تدل على المعروف ، وليست هى المعروف بذاته . لأن المعروف لا يحس بالنظر ، ولا يمس باليد ، ولا يدخل فى الكيس ، وانما هو ما يدخل فى القلب ، ولا يقدر قدره إلا ضمير الانسان ، والفرق عظيم بين السعى الذى تسعاه لصاحبك ، وبين الحاجة التى تسعى له فيها . فلا الذهب ، ولا الفضة ، هما المكنونان للمعروف فى الحقيقة ، ولكن نية الفاعل للخير عند فعله . وهذا هو الذى يجب تقديره فى النفس ، واسداء الشكر عليه ، وهنا لا يقال فى القليل إنه قليل ، ولا فى الكثير إنه كثير ، وان كان الناس لا يأخذون إلا بالظواهر ولا يلتفتون الا الى مقدار ما يعطى وما يؤخذ ، جاهلين قيمة المعروف فى ذاته ، وغاب عنهم أن هذه الامور التى تتطلع لها أنظارنا ، وتمتد اليها أيدينا ، ليست الا حطاما فانيا ، وعارية متنقلة

تنتزعها من أيدينا صروف الدهر ، وتغلبنا عليها نوازل الخطوب ، ولكن يد الدهر لاتقوى على أن تمحو ما سطر فى الصدور من إسداء المعروف . بل هو ثابت فيها أبدا ، وأثره باق على الدوام . ولو فرضنا أنك انقذت صاحبك يوما من قطاع الطريق ثم عادوا فاختطفوه فى اليوم الثانى ، فانهم لايختطفون معه معروفك وانما سلبوه التمتع به ، ولو نجّيت اولاد جارك من الحريق أو الغرق ثم نزل بهم بعد ذلك مرض أودى بهم ، فان المعروف لا يزال ثابتا فى ضمير الوالد . فكل ما نأتيه من اعمال الخير والصلاح ، ونسميه بالمعروف والجميل ، والاحسان ، انما هو أكمام تتفتق عن حسن النية فى الميل والعطف كما أن الأوسمة وشارات الرتب لا تؤدى بذاتها ما يفهمه الناس منها ، وانما قيمتها فى نية التشريف بها . ولذلك تجد الفرق عظيما بين الرتبة التى يسديها الملك من نفسه على نية التشريف ، وبين الرتبة التى تؤخذ منه بالوسائط ، لأنه ينقصها نية التشريف بالذات وهذه هى المقصودة من جميع تلك العلامات المعروفة بالنياشين والاوسمة وزخرف الملابس .

فتعريف المعروف إذن ، هو الفعل الذى يصدر من تلقاء النفس ، لمجرد الرغبة فى الخير ، ويستمد مسديه لذته من اللذة التى يشعر بها المسدى اليه . فالنية هى التى تقوم الأشياء وتقدرها قدرها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات » فرب صغير من الاحسان يكون كبيرا بصفاء النية فيه ، ورب صلة عظيمة يحط من قدرها كدر النية فيها ، وهنا يقال : « نية المرء خير من عمله » .

أما إذا اعتبرنا أن قيمة المعروف هى قيمة العطية ، وليس للنية دخل فى ذلك ، كان الشكر حينئذ على قدر العطية مع أن الأمر بالعكس ، فيجوز أن يكون ما تعطيه شيئا قليلا ويكون الشكر عليه عظيما ، ويجوز أن يكون صاحب المعروف فقيرا ، ولكن حالته عند الاعطاء تجعل عطيته مثل مواهب الملوك فى القدر والشأن .

وقد اختلف الناس فى تعريف الكريم ، وانما الكريم هو الذى ينسى ما هو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج ، وهو الذى يكون مغرما بالاعطاء فى كل وقت من الأوقات . وهو الذى يرى نفسه كأنه الآخذ والآخذ منه كأنه المعطى له ، كما قال الشاعر :

تراه إذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وهو الذى إذا رددت اليه معروفه نسى أن له عندك معروفا ، وعده يدا لك عليه ، وهو الذى لا ينتظر أن يأتيه صاحب الحاجة بل يسعى فى البحث عنه ، ومن كان على خلاف ذلك فهو تاجر مراب تأخذ منه المعروف أخذك الدين من الغريم ، أما الذى يعطى للسمعة ، والرياء ، والشهرة بالاحسان ، فانك ان أخذت منه شيئا فحسابه على تلك الفخفخة وليس عليك من حسابه من شىء .

كان من عادة «سقراط» أن يقبل الهدايا من تلاميذه كل على قدر ثروته ، فجاء الدور يوما على تلميذه « ايشين » وكان فقيرا فتقدم الى أستاذه وقال له ليس عندى ما أقدمه بين يديك مما يليق بقدرك ، وهذا الموقف اليوم وحده هو الذى أذكرنى فقرى وأشعرنى به ، فأنا أقدم اليك كل ما أملكه وهو نفسى ، فلا تحتقر هذه الهدية بما هى عليه ، واعلم أنه ان كان غيرى أهدى اليك كثيرا فقد أبقى لنفسه أكثر مما أعطى » فقال له « سقراط » وكيف تزعم أنك أهديت الى شيئا قليلا ان لم تكن نمسك عندك كذلك ،

فقد وجب علىّ إذن أن أتقبلها ، وأعنى بها عناية خاصة حتى أردها اليك بعد تثقيف العلم أحسن مما أخذتها منك »

ففاق التلميذ بهديته هذه جميع أقرانه ، وعلا عليهم فى المنزلة عند أستاذه الذى قدر نيته حق قدرها ، فوفى له بشكرها ، فقد تبين لك من ذلك أن الانسان يكون أكبر المحسنين وهو أفقر الفقراء ، وإن كيفية الاعطاء ، تعلو على كمية العطاء .

وكيفية الاعطاء هى أن تبدأ باعطاء الضرورى ، ثم النافع ، ثم ما يكون للتجمل والتنعم ، أما الضرورى فهو الذى يقوم بحفظ الحياة وموقعه فى القلوب أعظم مما يأتى للنفع والتجمل . فقد يجد الانسان مندوحة عن ذلك التجمل والتنعم ويستغنى عن احتمال عبء الشكر عليه .

والضروريات تنقسم الى ثلاثة أقسام ، أولها مالا يقدر الانسان أن يعيش بدونه ، وثانيها مالا ينبغى للانسان أن يعيش بدونه ، وثالثها مالا يرضى الانسان أن يعيش بدونه ، فيدخل فيه الانقاذ من المهالك ، واشراك العداوات ، وانتقام الظلمة ، وصنوف الأذى . وكلما عظم الخطر الذى تذوده عن صاحبك ، كان الشكر عظيما على قدره ، فان الانسان اذا سلم من خطر ، كان على وشك

الوقوع فيه ، بقيت فى نفسه صورته على أبلغ تمثيل ، وكلما تمثل للنفس الناجية ما كان ملما بها من الهلع والجزع، وخوف المكروه ، زاد ذلك فى جمال الصنيعة ، وبهاء المعروف عندها ، فتزداد شكرا . ولا ينبغى لصانع المعروف أن ينتظر بصاحبه اشتداد الخطر عليه لانقاذه ابتغاء المبالغة فى قيمة الصنيعة ليكون عظم الشكر بقدر جسامة الخطب ، فان ذلك مما تترفع عنه أريحية الكريم والا فقد دخل الأمر فى باب المتاجرة والمرابحة .

والقسم الثانى يدخل فيه كل ما يمكن الانسان أن يحيا بدونه حياة يفضلها الموت ، وهو فقدان الحرية والشرف والفضيلة .

والقسم الثالث يدخل فيه شهوة النفس فى زينة الحياة الدنيا من الأموال ، والمقتنيات ، وكل ما تتطلع إليه النفس ويعز عليها فقده .

ويلتحق بذلك ما كان من الأشياء النافعة التى لا تكاد تحصى كالمال بمقدار لا يفضل عن الحاجة ، وكسد الرغبات المحدودة مما لا يدعو إلى التبذير والاسراف ، وكالجاه والمنصب ، ويلتحق به أيضاً مالا يعد من أسباب التجمل والتنعم . ومزية المعروف هنا احكام مناسبته

فاذا أردت اسداء المعروف فى هذا الباب فليكن ما تعطيه عزيزاً غير مبتذل ، أو نادر الوجود فى زمانه ، أو نادر المثال فى زماننا ، فان لم يكن نفيسا فى ذاته ، أعاره الزمان والمكان من النفاسة ما كان ينقصه من قبل . فعليك باعطاء ما يجمل وقعه فى النفس ، ويبهر فى النظر ، ليكون ذكرى الصنيعة من المسدى اليه مقروناً بالاعجاب بما اهديته إليه .

ويجب عليك ألاّ تخطىء مواقع الهدية التى تهديها ، كأن تهدى آلات الصيد والقنص الى شيخ ضعيف ، أو أن تهدى كتابا الى رجل أمىّ . أو لعبة الى عالم فقيه .

كما أنه يجب المحاذرة من أن تهدى ما يظن فيه التعريض والتقريع ، كأن تهدى زقا من الخمر الى مدمن للشرب ، أو أزلام ميسر الى مدمن للقمار ، ففى ذلك تعريض بالمهدى اليه يذهب بالصنيعة بل يثير الضغن .

ومن حسن الكيفية فى الاعطاء أن نعطى على الطريقة التى نريد أن يعطينا الغير بها . وأن يكون الاعطاء مشفوعاً بما يدل على طيب الخاطر ورضا النفس ، مقرونا بالمبادرة اليه منزها عن التباطؤ ، فان كان هناك ما يلجىء الى الريث وجب أن يكون مصحوباً بما يدفع عنه تهمة التردد . فان

التردد أخو الرفض ، ولا يستحق الشكر عليه .

وقد قدمنا أن المزية فى صنع المعروف هى فى النية على عمله ، فاذا وقعت المماطلة فى الاعطاء فكأنما وقع منا الرفض بعينه . وفى هذه الحالة نكون قد أعطينا على كره . ومن الناس من يكون عطاؤه لحيائه وخجله أن يقابل الطالب بالرفض ، وليس هذا من باب الكرم فى شىء . وحلاوة المعروف فى المسارعة مع الطلاقة والبشاشة ، والاجابة قبل السؤال أولى وأجمل فى باب المعروف ، فتوفر على الطالب مضاضة الرجاء ، وذل السؤال ، فان صاحب الحاجة لا يسأل حاجته الا وهو فى حيرة وتردد يترقرق فى وجهه ماء الحياء ، فاذا كفيته مؤونة السؤال ضاعفت قيمة المعروف . ولا يكون النوال نوالا محمودا اذا هو جاء من طريق الطلب والسؤال ، فان أغلى الأشياء قيمة ما أرقت فى سبيله ماء المحيا ، وأخلقت فيه أديم الوجه :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
بدلا وان نال الغنى بسؤال
واذا السؤال مع النوال وزنته

رجح السؤال وخف كل نوال

وما نكس الرأس سائل وتلعثم لسانه . إلا لشعوره بذل موقفه ومهما عجلت بالعطاء بعد السؤال فانك لا تبرأ من نسبة التقاعد عن معونة صاحبك حتى أكرهته على مرارة السؤال . ومن الواجب ان تحس حاجته وهى فى نفسه قبل أن يكاشفك بها ، حتى اذا أدركت حاجته وهى فى خفائها أزلت ما به من مضاضة التردد بين الاقدام والاحجام . فاذا سبقك الى السؤال ، فعليك بقطع كلامه كراهة أن تطيل عليه ذلك الموقف ، موقف الاستعطاء والاستجداء ، وبادر ما استطعت الى اجابة سؤاله بحالة يشعر منها مسابقة ضميرك الى اسداء المعروف .

وكما أن مبادرتك باعطاء المريض الشئ الزهيد من الزاد والماء عند الحاجة تقوم مقام العلاج النافع ، فكذلك القليل العاجل الذى تعطيه لصاحبك لتكشف عنه عوزه يكون خيراً من الكثير الآجل الذى يتخلله التباطؤ والتردد .

وعليك أن تضم الى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند اسداء المعروف ، لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن

قصدك الى هذا الحين ، كأن تقول له « انى لاأغفر لك ترددك وتقاعدك عن طلب حاجتك ، كما أننى أشكرك على أن خصصتنى بها من دون أصحابك لحسن ظنك بى ، وثقتك بحسن مودتى . واعلم أننى منذ اليوم رهين أمرك فيما تكلفنى إياه من خدمة ، ولقدسامحتك فى استتارك منى بستار الخجل والحياء عند الطلب فى هذه المرة » فانك ان فعلت ذلك ، زدت فى مقدار الصنيعة ، وأسست فى قلب صاحبك ركنا من الشكر والحمد ، لايهدمه النسيان ، ولا يودى به مرور الزمان . ومن أكبر الأسباب التى تذهب برونق المعروف ، بل تدعو الى الجحود والكفران ، كثرة الوعد ، وطول التسويف . ومن الناس من يقصد ذلك ، ويتعمده للتباهى بتردد القصاد عليه ، واقامة الوفود ببابه . كأنما فعل الخير عنده ، سلطان لديه ، يتمتع بمظاهر أبهته ، وجلاله ، أمام حاشيته وأتباعه . ولا حق لمثل هؤلاء فى الشكر على الصنيعة ، بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال الى الكفران . لأن كل مايدخل فى حساب الوعد والمطل ، يخرج من حساب الشكر والاعتراف بالمعروف وربماأدى طول الانتظار ، وكثرة الوعود ، إلى

البغض والحقد فى نفس صاحب الحاجة . وكما أنه من أن من أفظع أسباب الوحشية ، وأبلغ القسوة ، تطويل مدة الايلام للمقدم للقتل ، وان المرحمة والانسانية فى الاجهاز عليه والتعجيل به ، لافى الابطاء والتطويل ، وان المدة التى تسبق الاجهاز هى الألم كله . فكذلك انتظار المعروف مدة الوعود من اعظم ماتتألم له نفس السائل . وليس يفى فيها الاحسان ابدا بقدر تلك الاساءة . وقد جهل المكثرون من الوعد بالاحسان ان توالى تراكم هذه الوعود ، يؤسس فى نفس الطالب حقا وتجعله فى منزلة صاحب الحق ، الذى يجب قضاؤه ، فلامعروف ولا شكر ، ولما كان اسداء المعروف علاجا لداء الاحتياج ، فالمماطلة فيه مدرجة الى استفحال الداء ، وقلة نفع الدواء . ومن الناس من يجرى فى اسداء المعروف على طريقة التقطع والتجزئة ، فلا يعطى صاحبه مايريد اعطاءه الا نجوما فى احيان متفاوتة ، فلا تجزىء صاحب الحاجة فى سد حاجته التى قصده من أجلها فى وقتها ، ولا ينتفع فيها بما ناله أجزاء ، بل يبقى فى شدة حاجته وان ظن صاحبه انه سدها ، والقليل مع التعجيل ، ادعى الى الشكر من الكثير مع

التأجيل ، ومنهم من لايصنع المعروف ويسدى الاحسان ، الا اذا اصحبه اللوم، والتعنيف، ومرارة النصح، وسوء التبكيت ، فيكون معروفه مكروها ممقوتا كالجوهرة حفت بها الأفاعى ، وكالزهرة تشول حولها العقارب ، طلب بعض المقربين من احد الملوك صلة يوفى بها ديونه فأمره الملك أن يقدم له جريدة بأسماء غرمائه ، ثم جمعهم امامه ، ووقع على جريدة اسمائهم بأنه احسن بذلك المبلغ المطلوب على فلان السفيه المبذر (يعنى صاحب الحاجة) لايفاء كل ذى حق حقه من ارباب الدين . فخاص الملك بهذا العمل صاحب الحاجة من ثقل الدين ، ومن واجب الشكر فى آن واحد ، ومثل هذا لا يقال له معروف ولا جميل ، وانما هو تشهير وتعيير .

واسداء المعروف ينقسم ايضا الى قسمين ، قسم عام يقتضى الجهر والاعلان له ، وقسم خاص لاينبغى له غير الاخفاء والكتمان . فمن القسم الأول ما يكون المجد فى اعلانه والشرف ، مثل صدقات الفرائض ، وغنائم الجيوش ، ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات الشرف ، وما يشابهها مما يزيد الجهر بها والاعلان لها قيمتها .

قال الله تعالى « ان تبدوا الصدقات فنعمّا هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » وقال ابن عباس رضى الله عنه « صدقات السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بسبعين ضعفا » .

والقسم الثانى هو الذى لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر ، وازدياد الشرف ، بل من شأنها سد الحاجة ، ودفع العوز ، ومداركة الافتضاح ، وهذا يجب فيه الكتمان وجوبا محتما ، وألا يعلم بالصنيع أحد سوى المقصود بها وحده . وبعضهم يذهب الى ان جمال الصنيعة لا يتم الا بكتمانه عن نفس المسدى اليه ايضا ، ولذلك فان كثيرا من ذوى المروءات يعمدون الى طرق الاحتيال فى وجوه صلتهم لأصحابهم حتى يخف عليهم احتمالها . ومن أجمل المدح فى هذا الباب قولهم : « فلان لا تعرف شماله ما أعطته يمينه » .

فان قلت ان جهل المسدى اليه باسم صاحب الصنيعة معه مما لا يجعل لها حلاوة فى نفس مسديها بل يحرمه من التمتع بشعور نفس صاحبه بمعروفه وانتظار الشكر منه

عليه ـ قلنا ان هذا الكتمان واجب لاتمام المعروف فى الحالات التى يكون فيها اسداؤه مما يحدث فى نفس المسدى اليه مرارة الخجل والحياء . وهناك فرص أخرى يوالى فيها صاحب المعروف معروفه فيها فتقوم موالاة المعروف بتعريفه لصاحبه ويدرك ما سبق بما لحق .

وفى النـــاس جانب عظيم يتبع معروفه بطول المن والتذكير به ، وهؤلآء هم اسوأ أهل المعروف والاحسان عملا ، واقبحهم فعلا ، واشدهم على النفوس ألما وكرباً ، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم ، بدل الشكر والامتنان . وكفى بهذا الخلق السيء شناعة وفظاعة ، ماورد فيه من الآيات المتعددة فى الكتاب الكريم فمنها قوله عز وجل: « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » وقوله : « ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شيء

مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين » ومن نوابغ الكلم قولهم : «صنوان من منح سائله ومنّ ، ومن منع نائله وضنّ ». ومن قول الشاعر:

وإن امرأ أسدى إلىّ صنيعة وذكرنيها مرة للئيم

وطالما وصل المنّ والتذكير بالمسدى اليه أن يتخلص منه بأى طريقة كانت ، ولو بالقاء نفسه فى المكروه . غضب بعض الملوك على أحد حاشيته ، وعزم على نفيه أو قتله ، فشفع فيه بعض المقربين واستنقذه من ذلك الخطب الهائل ، ولكن مابرح بعد ذلك يمن على الرجل بمعروفه ، ويذكره جميله ، فى كل زمان ومكان ، حتى ألجأه إلى تفضيل الوقوع فيما أنقذه منه على ترديد هذا المن فقال له يوما : « قم فردنى إلى الملك فقد سئمت ماتكرره على من إنقاذك لى من النفى أو القتل ، وتالله للوقوع فى أحد المكروهين أهون على من هذا المن ، نعم إنى أقر لك بالفضل والمعروف ، إذ أنقذتنى من الهلاك ، وأنعمت على بالحياة ، فليتك كنت تركت لى ذكرى ذلك من نفسى ، أما وقد جئت تذكرنى به كما يذكر صاحب الدين غريمه بدينه فالموت الذى أنقذتنى منه أحلى عندى من هذه الحياة التى

وهبتها لى ، ولقد تبين لى أنه لم يدفعك إلى حسن صنيعك معى إلا حب الاشتهار به والتبجح بفعله فاذهب فلا صنيعة لك عندى ولا حق لك فى الشكر عليها » فمن أول شرط المعروف الذى يستوجب الشكر ألاّ يذيعه صاحبه ولا يشيعه ، فان الاعلان له نوع من المطالبة بالتعويض عنه . ومن الواجب على صاحب المعروف أن يحبس لسانه عن ذكره ، ولا يتشدق به . بل يترك أمر إشاعته والتمدح به الى المسدى اليه فهو من شأنه وحده ، إن شاء أشاعه ، وإن شاء كتمه ، وإلا فلا حق حينئذ لصاحب المعروف فى الشكر على صنيعته لأنه يكون قد استوفى أجره هو بذاته عند ذكره له بين الناس ، ويكون قد دخل فى صف ذلك الرجل الذى مازال يمنّ على صاحبه بصنيعته حتى قال له ليس لك عندى صنيعة فقد رددتها عليك مرارا ، قال له ومتى كان ذلك ؟ فأجابه : « فى كل مرة ذكرت للناس هذه الصنيعة وفى كل مكان أذعت فيه معروفك » .

فضيلة الشفقة

الشفقة شكل من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها ، أو هى عبارة عن مشاركة الغير فى الاحساس لألمه ، وأثر من آثار الانفعالات الطبعية التى تثيرها مشاهدة التألم فى الغير . ومن مظاهرها المادية فيض العيون بالدموع ، إلا أنها لاتلبث أن تخمد وتنطفىء إن لم يثبتها الانسان فى نفسه بالتصور والفكر ، ولذلك ترى بعض الناس الذين تنقصهم قوة التصور ، وتدبر الفكر ، يشاهدون حلول الألم باخوانهم ولا يتألمون لهم . فلا بد لاستكمال هذه الفضيلة فى النفوس حينئذ من شرطين ، حدة التصور وكثرة التجارب ، أما حدة التصور فانها تجعل الانسان أهلا لأن يدرك انفعال الغير ويحس ألمه ، بل يحل محله ، فى الاحساس للألم ، وهو نوع من وحى النفوس بعضها إلى بعض حتى يصير قلب الانسان كالمرآة ينطبع فيه ما ينزل بقلب صاحبه . وأما التجارب فلأنها

تمكن الانسان من الاحاطة بمقدار الألم فى الغير ، ومعرفته له بما كابد من أمثاله وقاساه ، ولا تتم المشاركة فى التألم إلا بتذكر ما وقع للانسان من أمثاله . ولذلك نجد أن من كان أقل الناس آلاماً وأحزاناً ، يكون أبعد من سواه عن التوجع لأحزان الغير . ولا يعظم إدراك الانسان لآلام أخيه إلا بما جربه منها فى نفسه . وقصارى القول أن نمو الشفقة فى النفس لا يكون إلا بمقدار قوة الحافظة ، لأن التجارب ليست إلا عبارة عن مجموعة من آثار ما مر على النفس مدخرا فى حافظتها.

وتنتسب الشفقة أيضا إلى الأثرة وحب النفس ، فاذا شاهد الانسان أخاه فى الانسانية على حالة التألم ، أرجع البصر كرة إلى نفسه فأحس خلوها منه ، وتجلت له سلامتها بجانب ألم صاحبه كما يحس من بالشاطئ بسلامته عند مشاهدة الغريق يغالب الأمواج ، وهى تغوص به إلى قاع البحر . وفوق ذلك فان النفس تخشى وتفزع أن تقع يوما من الأيام ، فيما وقع فيه الغير من الآلام ، وتكون الشفقة هنا ناشئة عن توقع حلول المكروه بنا كما وقع لأمثالنا ، فنفرض أنفسنا على مثل حالة المتألم فتكون شفقتنا عليه فى نفس الأمر إشفاقا منا على أنفسنا وبكاؤنا عليه بكاء على أنفسنا .

فأصل الشفقة يتركب من فرعين كما قدمنا ، اشتغال الفكر بتصور الحال التى عليها الغير وما انطوت عليه نفسه من الأحزان والأكدار ، والثانى اشتغال الحافظة بالبحث فى ماضى الحوادث عما وقع لها من أشباه تلك الآلام . والنتيجة أننا نتلبس بحالة الغير ونصطبغ بصبغته . هذه هى الشفقة فى حقيقتها وكمالها ، والفرق بين هذه الشفقة المستكملة بالفكر والبحث ، وبين تلك الشفقة الطارئة التى تنشأ عن مجرد الانفعال النفسانى لوقوع الغير فى الألم ، كالفرق ما بين العقل والغريزة وما بين الارادة والشهوة وما بين القياس والشعور .

والشفقة وإن كان من أسبابها الأثرة وحب النفس كما ذكرناه ، إلا أنها فى واقع الأمر تتغلب عليهما بما تدفع الانسان اليه من وضع نفسه فى موضع المتألم ، ورضاه بقبول الألم الذى هو سالم منه وبعيد عنه ، ومساواته نفسه بالمتألم ، ومشاركته فى التأثر بما يتأثر به سواه . وهى على هذه الصفة لتجردها عن الغرض الذاتى واجتلاب الألم إلى النفس حيث لا حاجة إليه ، تعلو على بقية الأخلاق الفاضلة التى ترجع فى الأصل إلى طلب الانسان لمنفعته

فيرتفع قدرها على سائر الفضائل بمقدار تنزهها عن طلب المنفعة . والدليل على أن الشفقة من أفضل الفضائل طراً ، أن الفضيلة إذا بالغ الانسان فيها وافرط ، انتهى به طرفها إلى الرذيلة ، كفضيلة الشجاعة ينتهى طرفها إلى التهور ، وكفضيلة الحلم ينتهى طرفها إلى الجبن ، إلا هذه الفضيلة فانك كلما بالغت فيها وتطرفت تكامل بهاؤها وتجلى جمالها . ومن أقصى ما يمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من أساء اليه ، والشفقة فى كمالها إن تكاملت لا تفرق بين القريب والبعيد ، ولا بين العدو والصديق ، ولا تتناول من تألفه النفس وحده ، بل تتناول من يخالفها وينافرها ، إذ تزيل ما بين النفوس من الحجب وتعتبر الناس فى تأثرهم بآلامهم على السواء .

ومن الدليل أيضاً على رفعة قدر هذه الفضيلة ، ما تستبشعه وتستقبحه عند مشاهدتها للافعال التى تتحقق فيها خلو الفاعل من تلك الفضيلة ، فاذا رأيت اما تجرع طفلها سما زعافا ، لم تقل لأول وهلة كيف أقدمت هذه الأم على تلك الفعلة ولم تراقب عقاب الدنيا والآخرة ، ولم تقل إنها خالفت سنة الوجود فى العمل على بقاء النوع ، ولم

تقل كيف أخلت بتتميم وظيفتها التى قدرتها لها الطبيعة ، بل تقول أول ما تقول كيف صار هذا القلب جمادا خالياً من الشفقة ؟ ؟

وفضيلة الشفقة هى مصدر لكثير من الفضائل ، وناهيك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخير بين بنى الانسان فى الوجود ، واللتين نوه بهما الخالق عزّ وجلّ ، ونبه خلقه الى اتباعهما ، وأخذ الناس بوجوب العمل بهما فى قوله سبحانه وتعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » متولدتان عن هذه الفضيلة ، لأن الشفقة تكفنا عن مباشرة الأذى ، وتحجبنا عن إيقاع الايلام بالغير ، فهى منبع العدل وذلك تعريفه ، ثم أنها تبعث النفس على تخفيف الآلام عن الناس ، وتدعو الى فعل الخير معهم ، وهو أصل الاحسان وذلك تحديده ، كما أنها تدعو الى المساواة بين الناس فى التألم لهم ، وتقررها كما يقررها العقل ، لأن من أصول الشفقة أن يضع الانسان نفسه فى منزلة غيره ، ويحل فى محله ، ويعنى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه ، فيكره لهم مايكره ، ويحب لهم مايحب ، وهذا هو معنى المساواة فى أكمل مظاهرها ،

وكل ماكان من معانى التكافل ، والتضامن ، والتعاضد ، والتعاون ، فى الجمعية البشرية داخل تحت معنى الشفقة .

وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوز بالانسان دائرة العمل بها فى الانسانية ، الى دائرة العمل بها فى الحيوانية ، وليس فى نظر الانسان أبشع ولا أفظع من إيقاع الألم بالحيوان ، ولا يوجد فى جميع الأعمال السيئة التى يأتيها الناس بعضهم مع بعض ويفعلها الانسان بنفسه أقبح وأشنع من عدم التأثر مما يقع على الحيوان الأعجم من الألم . فاذا تبلد الناس وجمدوا ، وأغفلوا هذه الفضيلة ، وتقاعسوا عما تدعو اليه من فعل الخير والاحسان ، ومعاونة إخوانهم فى الانسانية عند حلول الآلام بهم ، ونزول المصائب عليهم ، فان منزلة إخوانهم لديهم تكون أدنأ من منزلة الحيوان ، ومنزلتهم هم فى أنفسهم أدنأ من منزلة الجماد .

الصيت والذكر

لرفعة القدر ، وعلو الشأن ، الذى ترغب فيه النفوس ، وتتجه نحوه المساعى طريقان ، طريق الفضل القائم فى النفس ، وطريق الاتفاق فى وقائع الأحوال ، والتناسب فى ظروف الزمان . أما الطريق الأول فهو صعب المرتقى ، وعر المسالك عظيم الشقة ، كثير التعب والنصب ، كما تتبينه فى ما يقاسيه أهل الطبقة المشتغلة فى الناس بالعلوم والمعارف . وأما الطريق الثانى فهو ذلول المركب ، سهل المنال ، قريب المسافة ، كما ترى الحال فى أهل الغنى وذوى المناصب وأرباب الفتوحات .

والأعمال والآثار التى تقوم عليها رفعة القدر ، وعلو الشأن ، تجرى فى طريقين : طريق الخلود والبقاء ، وطريق الزوال والفناء . وقد يبقى الذكر مع بقاء الأثر ، وقد يزول الأثر مع بقاء الذكر . فالأعمال الخالدة مع بقاء الذكر ، هى آثار المؤلفين والمصنفين ، من العلماء والحكماء ،

فانك لاتزال ترى إلى اليوم ، «أرسطو» مثلا ، قائما بيننا بكتبه يخاطبك بفكره ، ويرشدك برأيه ، وترى «ابن سينا» موجودا بمصنفاته ، يلقى إليك بأقواله ، ويفصح لك عن مذهبه ، فكأنك تسمع بهما وتراهما فى آن واحد ، بعد أن تولت بشخصيهما القرون ، وتراكمت على قبريهما الدهور . والأعمال البائدة مع الذكرى الباقية ، هى مثل فتوحات «الاسكندر» مثلا و «كنوز قارون» لاتزال تسمع بهما الى اليوم ، فالاسكندر لاترى أثراً من ملكه ، ولا تفتأ تذكر قارون ولا ترى ذرة من ذهبه .

واتساع الشهرة ، وانتشار الصيت بين الناس برفعة القدر ، وعلو الشأن ، يكون من جهة ادراكهم ، لكنه الفضل فى العمل أحيانا ، ويكون فى الغالب من جهة ادراكهم للعمل ، من غير تحقيق ولا التفات إلى قدر الفضل فيه ، ولما كان الفضل ليس بشائع بين الناس ، ولا لكل حى منه نصيب ، وليس يدرك الفضل إلا من نال حظا منه ، كان الحصول على الشهرة والسمعة ، وارتفاع الذكر بين الناس من جهته ، من أصعب الأمور ، وأبعدها منالا ، وقل من نال من سواد العلماء ، وجمهور الحكماء ،

شيئا من هذا القبيل فى حياته . وأدركه قبل مماته ، ومن رأيته وصل منهم إلى شبه حظ من الرفعة والشهرة ، ونصيب من حسن الذكر والصيت ، بين أهل جيله قبل أن يطويه الدهر فلا يكون مرجع ذلك لفضله وحده ، بل لظروف معينة جادت بها الأقدار . والسبب فى ذلك أن الناس يرون أنفسهم متساوين فى الخلقة ، ويعز عليهم أن يقع التفاوت بينهم فى مزايا النفس ، فيتولد منهم لذلك ماشئت من التحاسد والتغابن ، وشدة التنائى عن الاقرار بالفضل لصاحبه ، واشهادهم على أنفسهم باتصافه بمزية فى نفسه من دونهم . والناس أعداء ماجهلوا ، فاذا مضى صاحب الفضل من بينهم لسبيله ، وخلى مكانه ، انجلت عن أبصارهم غشاوة الحسد . فتبينوا حقيقة فضله ، وعلموا مقدار علمه ، فنوهوا باسمه ، وتولعوا بذكره . وهناك شهرة كاذبة ، وسمعة باطلة ، لاتقوم على فضل ، ولا تدور على عمل يستحقها ، ولكن انحطاط الافكار ، وقصور المدارك ، يولد لصاحبها قدرا باطلا فى النفوس المنخفضة لانخفاضه إلى درجتها ، واجتماعه معها فى انحطاطها . فاذا ارتقت الأفكار ، واستنارت الاذهان ، ظهر لها انخفاض شأنه :

فاعتات عليه وخلفته وراءها ساخرة منـــه ، هازئة به ، فيسقط اسمه ، وينقرض ذكره فى حال حياته ، أو عقب مماته . فلا تسمع له ذكرا ، بعد أن لم يكن يسمع أحد بغير ذكره ، وبعد ان كان لايدور على الألسنة غير اسمه .

أما اتساع الشهرة وانتشار الصيت ، من جهه الأعمال التى لايكون لصاحبها فضل فيها لذاته ولا مزية . فهو أقرب مايكون ، وأيسر ماينال بين الناس ، لأن الفضل فيها بينهم ليس للشخص ، ولالمزية امتاز بها عن سواه ، بل الفضل فيها لوقائع الأحوال ، وتصرف الحوادث ، فلا يبقى محل للحسد والغبن . ولأن كل إنسان يرى نفسه أهلا لها فلا تمتنع عليه إذا صادفته لحظة من إقبال دهره وأدركته لمحة من حسن الاتفاق فى سيرته ، وفوق ذلك فان مثل هـذه الأعمال الناشئة عن أحكام الزمن ، وسلطان الحوادث ، هى من الأمور الشائعة المتداولة التى تتناولها كل الأفكار ولا يصعب على الناس خاصة وعامة سرعة ادراكها وفهمها فتكون الشهرة على حسب ذلك فى الاتساع والانتشار . وكل الناس يدركون معنى السعادة فى الغنى ، وقل من يدرك فيهم معنى السعادة فى الحكمة . وكل الناس يدركون معنى

الفوز والانتصار فى الحروب . وليس كل الناس من يدرك معنى التعمق والرسوخ فى العلوم . ولذلك ترى أن أكثر من ينال رفعة القدر ، وشهرة الذكر ، بين الناس فى أسرع وقت ، وأقرب مدة . واتفاق الاجماع عليهم ، هم قواد الجند بقطع النظر عن كل فضيلة ومزية فيهم ، إذا انتصروا يوما فى واقعة من الوقائع ، وفازوا فى معركة من المعارك التى ربما لم يكن لهم فيها أقل أثر من العمل سوى وجودهم فى قيادة العسكر ، ولم يقع الانتصار فيها إلا بحكم الاتفاق وتقدير القضاء ، مما هو خارج عن قدرتهم ، بعيد عن تصرفهم ، وكم انتصر القائد بأدنى سبب وأوهى علة . وكم تبلج له الفوز والانتصار وهو فى ظلمات اليأس وعند انقطاع الرجاء بهفوة من عدوه وزلة من محاربه ، لم تخطر له بالخاطر ، ولم تجر فى الحسبان . وكم تولد الانتصار أيضا بعدة امور لا دخل لها فى مهارة القائد ، ولا فى حسن تدبيره ، مثل جهل العـــدو وسوء اغتراره وقلة عدده ونقصان عدته . أو لبعض العوارض الطبعية فى رداءة الموقع ، ونزول الأمطار واتجاه الشمس ، واكفهرار الجو ، ونحو ذلك من الأسباب التى لا تعد ، ولا تحصى ولا

تحصر ولا تستقصى . فما هو الا أن تجرد المقادير على أحد القواد بسبب من هذه الأسباب حتى ينتصر بها على عدوه فترى الناس كلهم أنصاره وأحزابه ، ينوهون بذكره ، ويتباهون بعمله ويشيدون باسمه ، ويضعونه فوق الرؤوس ، لا لأنه قد علم ما لا يعلمه سواه من فنون الحرب . أو أنه ابتكر طريقه فى اللقاء لم يهتد اليها غيره . ولكن لمجرد كونه نال الفوز على عدوه بأى طريقة كانت فهو يشخص فى اعينهم صورة الانتصار وكفى بها فضلا لديهم وكفى بها مجداً له وفخراً ، وصيتا وذكراً .

تم بعون الله وتوفيقه

فهرست

94